Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

القرآن
بحث جديد : لمحمد صبيح

C
352
PT20 - 20%
Halaby
17/7/45

عن

القرآن

بقلم
محمد صبيح

الثمن ٢٠ قرشاً

AIGRLLIQ VTIGSEVINU

مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

893.7K84
II S94

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

صلتى بالقرآن قديمة ، هى نفس الصلة التى بين كل مسلم ينشأ فى مصر وبين القرآن . . يحفظ خفاف السور وهو لم يبلغ السادسة بعد ، ويتخذها أداة صلاته ، فى هذا السن المبكر ، وأداة خوفه فى نفس الوقت . . لانه يقرأ مع معلمه « إنّا أَعطَيناك الكَوْثَر ، فصلِّ لربّك وانْحَرْ ، إنَّ شَانِئَكَ هُو الأبتَرُ » ويسمع أن الكوثر نهر ، وان النحر هو الذبح ، وأن البتر هو القطع ، فلا يكاد يخلو إلى أحلامه وخيالاته حتى تتراءى له ذبائح وأشلاء ، وأنهار من الدماء ، يظل يرهبها ليله ، ويردد ألفاظها فى صلاته نهاره .

ولقد علمونا صغاراً أن نتلو جزء « عم » ، وأن نحفظه حفظاً جيداً ، فاذا فرغنا شرعنا فى جزء « تبارك » ثم فى جزء « قد سمع » . . ولنا فى كل جزء هبات من السماء ، وهى هذه القصور الفسيحة فى الجنة التى نمرح فيها ما نشاء ونضحك كيف نريد ، ونأكل من هذه الأثمار ، ومن هذه الأطيار ، وتتراءى لنا الغلمان والحور فى أبهى صورة وأبدع زينة . . نوعد بهذا الجزاء

فنقبل صباحنا كله ، وصدراً من مسائنا على السور نرددها ونرتلها ، ونرفع بها أصواتنا ، حتى إذا خلونا إلى فراشنا ، عادت صور اللهب ، وصور الزبانية ، تسد علينا الأفق ، تقترب منا حتى تكاد تحرق وجوهنا ، فنختفى تحت الفراش ونجيد إحكام الغطاء على وجوهنا حتى تضيق أنفاسنا .

هـذه الصورة الساذجة عن صلة الطفولة بالقرآن الـكريم ، هى ما أحببت أن أقدم به مقدمتى ، لـكى ألفت النظر إلى أن فقهاء ربع قرن مضى كانوا أشداء على إفهام الصغار ، يبالغون فى الارهاب كما يبالغون فى الوعد بالثواب ، فإما أن تلتوى معهم هذه الافهام الغضة اليانعة ، وإما أن تنصرف عنهم ، وكلا الأمرين شر . وأحسب أن دنيا الطفولة الآن استقامت بعض الشىء ، وأن هـذه الصور القديمة التى تختزنها الذا كرة فيما تختزن من ذكريات لم تعد موجودة . .

■ ■ ■

وما أشبه هذه الحال عندى ، بما كان عليه فهم كثير من العرب للقرآن وللاسلام فى فجر حياته ، فهو فى تقديرهم هذه التفسيرات المادية المغرقة فى ماديتها للحياة الآخرة ، والتى يقل نصيبها من المعنويات بقدر ما يقل فهم هؤلاء العرب لحـكمة الإسلام العليا ، وهى التوحيد فى أسمى صوره ، وأكرم مظاهره : وحدة الإله ، ووحدة الـكون كله . . وقدرة الإله التى لا يحدها حد . . حكمة القرآن هى الدعوة للخير كله والجمال كله والحب كله ، والعمل النافع الذى

يفيد النفس والناس، وينظم ما بين البشر من صلات ، ثم هـذه العبادات السهلة النظيفة المشرقة التى تحقق للمسلم ألوانا من راحة الضمير، وراحة البدن، وراحة الروح : فهذه الصلاة كل يوم خمساً ، وهذا الصيام كل عام شهراً ، وهذه الدعوة إلى بر الفقير بقدر معلوم ، وهذا النصح بارتياد البيت العتيق وزيارة مهبط الوحى وأكبر بيت للتوحيـد فى الوجود ، والنظر الى هذا الحجر وهذا الجبل وهذه الصحراء وهذه الطبيعـة كلها التى شهدها محمد عليه السلام قبل ثلاثة عشر قرنا ... فرح فيها وحزن ، وجاهد فيها وجوهد ، وصابر فيها وصبر ، حتى أنفذ الله وعده ففاز وانتصر . .

هذه الدعوة السمحة السهلة التى لا تعقيد فيهـا ولا إبهام هى الاسلام الذى جاء به القرآن : « ذٰلِكَ ٱلْـكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ، ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »

■ ■ ■

ولئن كان بعض العرب الذين عاصروا رسول الله قد فهموا القرآن فهماً يشوبه الـكثير من النقص ، فقد فهمه الصحابة الأقربون من النبى . . فهمه تلاميذ محمـد عليه السلام الذين يسمعون منه ، ويأخذون عنه ، فهماً أدنى الى الصواب ، بل هو الصواب كله . . وحسبهم أن يكون معلمهم هو صاحب الرسالة ومن نزل عليه وحى القرآن . .

إلا أن هذا الفهم من الصحابة — وحتى من أكثرهم علماً وأعمقهم تفكيراً — لم يعن بالمشكلات ، أو يغوص وراء المعانى المعقدة . . كان فهما لاجمال القرآن واستخلاصاً لروح الاسلام الصافية من آياته المحكمات . .

روى أن رجلا سأل عمر بن الخطاب عن كلمة « الأب » فى آية «وفاكهة وأبا» . . فقال عمر : نهينا عن التكلف والتعمق. وقد ذكر المفسرون أن « الأب » هو المراعى ولكنى سمعت من الأستاذ شاده أن « أبا » كلمة حبشية معناها الفاكهة ، أى أن الآية ذكرت الكلمة العربية وما يرادفها بالحبشية تأكيداً وتثبيتاً للمعنى المراد .

وكانت فطرة الاسلام فى ذلك الوقت تلائم هذا النظر العام للقرآن ، تستمد منه روح القوة والكفاح ، وتأخذ عنه نظام الجماعة كما يدل عليه ظاهر الآيات ، مسترشدة فى كل هذا بأحاديث رسول الله وسننه . .

■ ■ ■

فلما تعقدت حياة الاسلام بكثرة الحروب ، ودخول شعوب ودماء غريبة فى الاسلام ، ولما كثر المال ووقفت دفعة الفتح الأولى أو كادت ، وجد المسلمون فراغا من الوقت ، فراحوا ينظرون إلى القرآن نظراً آخر ، غير نظر الأُلى سلفوا من صحابة رسول الله . . راحو يراجعون السور والآيات ويقلبون الألفاظ والحروف ، وينقبون عن معانيها وعما وراء هذه المعانى . .

ولئن كان هذا النوع من العلم محموداً ، بل هو محمود كل الحمد ، لأنه تفقه فى الدين وفى اللغة وفى الأدب ، إلا أنه كان سلاحا ذا حدين ، فقد فتح أبوابا للخلاف بين المفسرين والمفتين . وراح قوم يتأولون القرآن ويخرجونه عن معانيه . . وراح قوم يضيفون الى الآيات ما لا تحتمل من شروح ومعان ، يؤيدون بها حيناً حجج السياسة ، وحيناً حجج المذاهب الفقهية المتعارضة . .

إلا أن هـذا الخلاف — وهو أمر طبيعى فى كل جماعة انسانية تأخذ نصيبها من الترف المـادى والترف العقلى — لم يؤثر على مجموع المسلمين . فبقى أهل السنة هم كثرة المدركين لحقائق القرآن دون تعسف فى المعنى ، ولا إرهاق للالفاظ .

وأمامى الآن فهرست ابن النديم ، هذا الـكتاب الخصب الغزير النفع ، فقد أورد فى الفن (القسم الثالث) من المقالة الأولى قائمة بأسماء الـكتب وأسماء المؤلفين التى اجتمعت لديه ، وطالعها بنفسه ، تبحث فى علوم القرآن ، وتقع هذه القائمة فى أكثر من عشرين صفحة من كتاب الفهرست ، فهو يورد مثلا أسماء ستة كتب فى « لغات » القرآن ، هى : كتاب لغات القرآن للفراء ، وكتاب لغات القرآن لأبى زيد ، وكتاب لغات القرآن للأصمعى ، وكتاب لغات القرآن للهيثم بن عدى ، وكتاب لغات القرآن للقطيعى ، وكتاب لغات القرآن لابن دريد (لم يتم) ويورد فى قراءات القرآن أسماء اثنين وعشرين كتابا ومؤلفيها ، ويورد فى تفسير القرآن أضعاف هذا العدد ، وكذلك

فى غريب القرآن وفى نقط القرآن وشكله ، وفى لامات القرآن ، وفى وقفه وابتدائه، وفى متشابهه وهجائه، وفى مقطوعه وموصوله، وفى اختلاف المصاحف وفضائل القرآن . . الخ .

وهذه المئات العديدة من الكتب التى رآها ابن النديم هى بطبيعة الحال غير مالم يره ، فإذا عرفنا أنه عاش حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ، قدرنا أى ذخيرة علمية كانت موجودة حتى ذلك العهد ، ولو أن أكثرها لم يصل الينا مع الأسف فقد أضاعت غارة التتار المخربين هذا التراث العظيم . . ولكنها أبقت لنا هذا السجل الذى أرخ مدى النشاط العقلى العظيم الذى كان القرآن باعثه لدى المسلمين حتى عصره . . .

فإذا طوينا هذه القرون الاولى على عجل ، وأشرفنا على العصر الحاضر ، فانا نرى علوم القرآن تتجه وجهة أخرى غير ما كان عليه الحال فى ذلك الزمن الأول . .

نرى بلاد الإسلام تكاد تعيش عالة على هذا التراث القديم ، بل هى لاتجيد النظر فيه ، ولا الوقوف عنده ، فهى تختار أيسر الكتب ، تتدارسها وتتناقلها ، ولا تتجاوزها إلى غيرها ، لأن المنهج المرسوم قضى بأن يقرأ هذا التفسير أو ذاك . . . أما البقية فخزائن الكتب وفئرانها أولى بها . .

ونقول « تكاد . . » بلاد الإسلام تقف عند هذا الحد ، لأنا لا نستطيع أن نهمل هذا القبس المضىء الذى ينبعث من ذكرى الإمام محمد عبده ،

والذى كانت حيـاته وجهوده سبباً فى إيقاظ بعض الهمم ونقطة تحول خطيرة فى تاريخ العلم الحديث . فقد دعا الى تجديد مقاييس الفـكر الإسلامى ، ونفذ عملياً ما دعا له ، بأن فسر بعض القرآن ، ودعا إلى عدم الخوف من اقتحام هذا الباب لذوى البصائر ، فـكانت من بعده مدرسة المنار ، التى قام عليها الشيخ رشـيد رضا ، والتى انتهت الينا بتفسير المنار وغيره . كما كان تفسير العلامة فريد وجدى ومقدمته النفيسة عن القرآن . ولا ننسى أيضاً تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى الذى يتمتع بشهرة فى وسط آسيا . وكتاب إعجاز القرآن للرافعى .

هـذا هو تلخيص سريع لحاضر الحركة العلمية المتصلة بعلوم القرآن ، وذكر لأعلامها الظاهرة . . وهى كما ترى منحصرة فى مصر . أما فى البلدان العربية ، فقد كانت الحركة الوهابية سبباً فى يقظة علمية فى الحجاز تتجه اتجاهاً خاصاً . وأما فى العراق فلا تزال الجهود هناك قاصرة على مصنفات الشيعة ، وقد أذاع منتدى النشر بمدينة النجف منذ ثمانى سنوات طبعة موفقة للجزء الخامس من كتاب حقائق التأويل فى متشابه التنزيل الذى ألّفه الشريف الرضى ، وقد شرحه العلامة محمد رضا آل كاشف الغطاء ، كما صدر كتاب تاريخ القرآن للأستاذ الزنجانى . ولـكن هـذا الجهد الحميد ، وجهوداً أخرى لا تصـل الى مستواه ، لا تزال فى دائرة الـكشف عن التراث القديم من وجهة النظر

الشيعية . وأما ما يضيف جديداً إلى ماخلف الآباء، فهذه مرحلة لم يأت وقتها بعد . . .

وكان لتركيا أيام الخلافة جهود لا أعرف مداها ولكنى لا أكاد أحس بتأثيرها ، ومن المؤسف أن هذه الجهود قد وقفت بعد الحركة الكمالية ، اللهم إلا ترجمة عاكف بك للقرآن .

وكم كنت أود أن يكون لى علم باللغة الأوردية (الهندية) ، إذن لكنت أستطيع أن أنقل صورة تقريبية عن مدى الجهود القوية التى تبذلها جمعية العلماء فى لكنو ، وأساتذة جامعة عليكرة وغيرهم . . وأذكر أنى اطلعت على فهرست لكتب صدرت باللغة الاوردية ، ويتضمن هذا الفهرست أسماء عشرات من الكتب صدرت بلسان الهند عن علوم القرآن وفلسفته .. وعلى الرغم من أن الحركة العلمية الدينية فى الهند أحدث عهداً من نظيرتها فى مصر إلا أنها سبقتها بخطوات واسعة . .

■ ■ ■

وإن كان لنا ما نشكو منه من فتور ، وكدت أن أقول « شلل » ، حركة التأليف المتصلة بعلوم القرآن ، حتى لتكاد الدفعة التى دفعها الأستاذ الامام محمد عبده تقف وينساها الناس . . إلا أن نهضة الأزهر الحديثة تبشر بخير كثير ، فهذه الكليات الجديدة التى أنشئت فيه ، وهؤلاء الشباب الذين يقبلون على علوم الأزهر العالية فى شغف وتطلع ، يبشرون بمستقبل فيه حياة

وفيه إنتاج لنهضة العلوم الدينية ، وستكون علوم القرآن من غير شك محوراً من أهم محاور هذه النهضة . . وأمامى الآن مذكرات كلية أصول الدين عن موضوعنا هذا ، التى عنوانها « منهج الفرقان فى علوم القرآن » للشيخ محمد على سلامه ، وهى مذكرات جديرة بالثناء العظيم ، وان كنا نود أن نخلص قليلا من بعض القيود التى تحد من آفاق البحث . . فإنما يراد من هذه الدراسات أن تكون نماذج مبتكرة لبحوث عميقة ، يفقهها الطلاب ، وتفتح أمامهم آفاقاً جديدة ، يندفعون فيها ويكملون مابدأ أساتذتهم ، حتى تتجدد دورة الحياة العقلية ، وحتى يكون الجيل القادم أكثر استعداداً للانتاج من الجيل الحاضر إلا أن جدة هذه العلوم على الأزهر ، تعطينا الأمل الواسع فى أن تزاد مع الزمن صقلا ، وأن تعنى بصفة خاصة بتعرف ما كتب المستشرقون فى المسائل الاسلامية ، مما سنشير إليه بعد حين . ولعل من أسباب هذا الأمل الذى نرجوه للدراسات الأزهرية ، ما نلمحه فى دروس فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى من نشاط عقلى محمود خليق بأن يحتذى ، ومن حرية فى التفكير ينبغى أن تتنبه لها البيئة الأزهرية . . كما أن جهود الأستاذ فريد وجدى فى مجلة الأزهر خليقة بالثناء ، حقيقة بكل إعجاب .

■ ■ ■

وناحية أخرى من نواحى النشاط العقلى لم يعرف الناس عنها شيئاً يذكر الى الآن ، وهى جهود كلية الآداب فى هذا الميدان . فقد أنفق

الأساتذة طه حسين ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وابراهيم مصطفى وأمين الخولى عشرين عاما وهم يبحثون ويدرسون فى جوانب من علوم القرآن ، لا أستطيع أن أقول انها كملت بعد حتى يقف الناس على مداها ، ولكنها أفلحت الى حد كبير جداً فى توجيه عقول الشباب الجامعى الى هذه الناحية من نواحى التفكير والنشاط . ولعل كثيرين سيدهشون إذا عرفوا أن تفاسير الطبرى والزمخشرى والقرطبى وابن كثير والبيضاوى وغيرها من الكتب تقرأ فى كلية الآداب، وان طلاب هذه العلوم يعرفون الشىء الكثير عن كتب : حجة الله البالغة للدهلوى ، و إرشاد الفحول للشوكانى ، وأعلام الموقعين عن رب العالمين، ومدارج السالكين لابن القيم، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى والموافقات للشاطبى . . وغيرها مما تكفى فيه الاشارة دون الحصر والإحصاء !

ولوزارة المعارف أيضا جهد فى هذا الميدان ، هو جهد وضع البرامج لتلاميذ المدارس وتعديلها كل حين، كما أن بعضاً من رجالها ألفوا كتباً قيمة نذكر منها كتاب قصص القرآن للأستاذ جاد المولى بك وثلاثة من المدرسين .

■ ■ ■

ذلك كله بعض ما يتصل بدراسات القرآن فى العصر الحديث ، فى العالم الإسلامى . . ولكن هناك ناحية أخرى عظيمة الخطر عميقة الغور هى جهود

المستشرقين التى دامت الى الآن قرابة قرنين باحثة منقبة فى القرآن وفى علومه وفيما كتب عنه السلف .

لقد سبقت هذه الجهود جهودَنا فى العالم الاسلامى بمدة طويلة ، وانقطع كثير من العلماء ، وأنتجوا دراسات عظيمة القيمة ، لم ينتبه الى أكثرها حتى الآن . وهذه الدراسات تنقسم الى قسمين : قسم يتناول نشر الكتب القديمة وترجمتها وشرحها وعمل إحصاءات للقرآن وقواميس ، مثل قاموس فلوجل ومصحف فنسنك وترجمة سيل للقرآن ، وهذه الكتب الكثيرة التى نشرت وعلى الأخص فى ألمانيا من كتب الفقهاء الأقدمين . . هذا الجهد جدير بالإكبار الشديد . وأما القسم الثانى فهو ما يتناول القرآن وعلومه بالنقد والشرح . فما أكثر ما انزلقت أقدام المستشرقين وما أكثر ما تنكرت للعلم وللحق ، ولكنها فى بعض الأحيان سارت فى طريق مستقيم ووفقت الى نتائج عظيمة القيمة ، مما سنعرض لبعضه فى خلال البحث الحاضر .

هذه الجهود التى بذلها المستشرقون فى اللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية والروسية والإيطالية هى ما ينبغى أن تتنبه له الجامعات المصرية والأزهرية . ولعل جامعة فؤاد الأول قد بدأت تقوم بدورها ، ولكن لا بد من مضى وقت طويل قبل أن يتم نقل المفيد النافع من هذه الدراسات بشتى اللغات ، وهو شىء كثير . . كثير جداً . ومصر كمركز لأكبر حركة ثقافية إسلامية فى العالم جديرة بأن تضطلع بهذا العبء وأن تعد له عدته ورجاله .

وقد أبديت هـذا الرأى مرة فاعترض عليـه بعض المتزمتين ، بقولهم : ما هذا الذى يريد أن ينقل كلام « الـكفار » عن القرآن إلى لغتنا ، ولنا فيما قال السلف الصالح مايغنى ...» ولهؤلاء أقول إن نقل كلام هؤلاء «الـكفار» لا يتعارض مع التوفر على دراسة ما خلف السلف . بل لقد دعوت منذ حين فى هذه المقـدمة إلى العناية بهذا التراث الخالد ، وإلى الزيادة عليه ... وإنه ليـكون إثماً ما بعده إثم أن يقول ناس عن قرآننا ودِيننا كلاماً بعضه خير و بعضه شر ، فنغلق من دونه آذاننا .. ذلك لأن الخير منه يفيد ، ولأن الشر منه يحتاج منا إلى رد . ولقد سبقنا إلى هذا الأستاذ الإمام محمد عبده ، فقد ترجمت فى أيامه مقالات وأحاديث المسيو هاناتو عن الإسـلام ، فنهض للرد عليها . وكان من مقالات هاناتو مقتبسات وقحة من كتاب باثولوجيا الإسلام لـكيمون قال فيها « ان الدعاية المحمدية جذام نشأ بين الناس وأخذ يفتك بهم فتـكا ذريعاً ، بل هى مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والـكسل ولا يوقظه منها إلا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح . وما قبر محمد فى مكة إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيـان بمظاهر الهستريا العامة ، والذهول العقلى وتـكرار لفظ الله إلى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحانى

والليمانيا أو الماليخوليا وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات الخ . . الخ »[١] .

وكان رد الشيخ محمد عبده على هذه القحة مثيراً لدوى كبير فى الشرق والغرب مما اضطر الوزير الفرنسى هاناتو الى أن يكتب فى جريدة الجورنال الفرنسية مقالا اعتذر فيه عما بدر منه ، ووجه القول للامام هكذا : « ولذلك أرى أن ذلك الإمام العظيم صار فى بحثه أشبه بمن يدفع باباً مفتوحاً من ذاته ، سواء قرأ ما سطرته فى الأصل الفرنسوى أو وقف عليه من الترجمة . إما انه لم يفهم مرادى وإما أن الترجمة كانت فاسدة لم تتوفر فيها شروط الأمانة . لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لأقواله على حقيقة فكرتى التى كشفت النقاب عنها فى آخر مقالتى وكلها احترام واعتدال ومسالمة وتوفيق »

ولم يقل أحد ان هذا الجدال الذى قام بين الإمام محمد عبده وبين هذه الطائفة المتحدثة عن الإسلام بغير الحق انقص من إيمان مؤمن ، أو جرح عقيدة معتقد . بل على العكس . . ان ترك الافتراء كما هو دون دحض يقيم من شأنه ويبقى عليه . . فاذا قدرنا أن ليس كل ما يكتب الأور بيون عن القرآن شراً ، وان فيه جانباً جزيل النفع غزير الفائدة ، فلا معنى إذن لأن تلبس الحركة الفكرية قميص الكتاف ، فالاسلام بخير ، وما تقدمت علومه

---

(١) ص ٣٩٠ ج ٢ تاريخ الامام

وما رسخت قواعد هذه العلوم فى عصر العباسيين إلا بعد أن اتصلت بآثار الفكر الغربى ، وأخذت عنه . . ثم عاد الفكر الغربى يأخذ عنا ، ويستضىء بضيائنا . .

ان القرآن بخير ، وسيظل كذلك ، فقد أنزله الله هدى للعالمين ، وقال تباركت أسماؤه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »

■ ■ ■

و بعد

فقد كنت مضطراً لأن أعرض هنا طائفة من الآراء قد لا أجد لها مكاناً فى خلال البحث القادم ، ولذا طالت المقدمة عما قدرت لها ، فمعذرة . .

و إنى أسأل الله أن يوفقنا إلى إتمام هذا البحث الذى قد يستغرق جزئين أو أكثر من أجزاء كتاب الشهر ، وأن يكون جهدنا فيه فاتحة جهود أقوم .. فلا يزال الطريق وعراً ، ولا يزال مجال العمل فسيحاً يتسع لجهود لا انتهاء لها ؟

القاهرة فى { ٩ شوال سنة ١٣٥٨ / ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٩

صبيح

صَوْتٌ من السّماء

— ١ —

الدنيا كلها نائمة ، ومكة من هذا الوجود تنام كذلك نوماً ثقيلا يسمع له غطيط ، فقد أنفقت يومها فى هذا العبث الذى تقضى فيه نهارها كله وصدراً من ليلها ، تسمر وتشعر وتضحك وترقص . . وهذه الأصنام البله تطل عليها من أركان البيت العتيق ، لا تدرى لِمَ شدّوها فى مكانها ، ولِمَ يطيفون بها يرقصون ويقفزون عراة حيناً ، ومكتسين حيناً آخر ، كأنما بهم جنة . . وما بهم من جنة إلا أنه الفراغ فى الوقت ، والفراغ فى النفس ، والفراغ فى الرأس ، يزين كثيراً من الهزل على أنه جد ووقار .

دنا وقت الفجر ، وأحس الكون لنسائمه الباردة برجفة خفيفة ، فأجاد النائمون فى مكة إحكام الغطاء عليهم ، إلا أن عيناً فى بيت من بيوت هذه القرية لم يزرها الغمض إلا لماما ، فقد ألحت على صاحبها نداءات النفس وهواتف الضمير تدعوه الى اليقظة فقد آن وقت الرحيل . .

وتسلل رب هذا البيت من فراشه خفيفاً وئيداً ، حتى لا تستيقظ زوجه النائمة بجواره ، وأحكم الغطاء حولها ، ثم سار حذراً لا يسمع له حس كأنه

الطيف ، والتمس فى مكان قريب حقيبة كان قد أنفق قسماً من نهـاره فى إعدادها، تعاونه زوجه . .

حمل حقيبته ، وهم بالخروج ، ولـكنه لم ينس أن يلقى نظرة كلها حب وكلها إعزاز على صاحبته التى يغادرها حيث كان ينام ، ثم تحسس طريقه ، وغادر البيت . ولو أنه التفت وراءه ، وهو يفصل عن الدار، اذن لرأى هذه التى ظنها غارقة فى نوم عميق قد رفعت الغطاء عن رأسها ، وشملته بنظرة فيها كل ما يمـكن للنفس الرحيمة المحبـة أن تحمل من عاطفة كريمة . وكم كان بود خديجة أن تنهض فى هذه الساعة المبكرة تودع زوجها ، وتعاونه على حمل متاعه ولـكنها رأت فى كل مرة خرج فيها هذا الخروج أنه يكون أكثر اغتباطاً إذا هى أعفته من مشقة وداعها، فآثرت أن تتظاهر بالنوم وماهى بنائمة، وآثرت أن تلتزم الصمت و بودّها لو تـكلمت وقالت لصاحبها الـكثير مما بنفسها . .

انطلق محمد فى هذه الساعة المبكرة يحمل حقيبته حتى جاز مكة ، وصعد فى طريق سهل أوله ، ثم يأخذ فى الالتواء وفى الضيق وفى الارتفاع ، ولـكنه مع هذا لم يحس بمشقة فى المسير ولا فى التصعيد ، فقد قطع الطريق مرات ، ومرات قبل هذه المرة ، وإن به لشوقاً الى مكان يؤثره على غيره من الأمكنة كلها، وإن به لهوى إلى هذا الغار الذى يقطع فى الوصول إليه من مكة ثلاثة أميال ، وكأنها ثلاثة أشبار . ويصعد إلى سفح الجبل مستعيناً بالصخرة الناتئة حتى إذا وصل ، ألقى عن عاتقه الحقيبة فى رفق وأطلّ من فم الغار إلى هذا

الوجود المنبسط تحت قدميه فيرى الصحراء وقد بدأت عيون الفجر ترنو إليها فتبعث على وجهها ضوءاً خفيفاً يزيدها رهبة وفتنة . . ويستنشق محمد نَفَساً طويلا كأنما يريد أن يسكب فى نفسه ما يحيط به نظره من جمال وجلال .

وإنه ليدير بصره حوله ، حتى إذا وقع على مكة فى غطيطها انقبضت نفسه ، فطالما أحسّ بالضيق الشديد فى هذه الساعات وهذه الأيام التى أنفقها فيها . ولطالما سخط على ما كان أهلها يغرقون فيه من عبث وجهالة ومنكر فادح . . ولطالما عذّبه الشك وأرّقه الليالى الطويلة وهو يفكّر فى شؤون قومه ، فلا يراهم ينتهون من ضلال إلا ليصلوه بضلال جديد . . . ولم تكن فى مكة نقطة تستريح لها نفسه إلا هذا البيت الذى يأوى إليه وتعمره زوجه خديجة بحنانها ومحبتها . . لطالما فرّ من مجون قومه الذى كان يجرح عقله وقلبه إلى صدرها يبثها شكواه فتمسح أحزانه بيديها الرحيمة ، وتأخذ فى سرد هذه القصص التى كانت تسمعها من ابن عمها ورقة بن نوفل الذى غادر الحجاز مع صاحب له[1] وطوف ببلاد النصرانية فى الشمال ، وسمع عن الأحبار ، وأخذ عنهم وكتب من إنجيلهم .

أنفق محمد وقتاً غير قصير وهو فى مكانه الرفيع حتى غمر الكون ضوء الفجر الأبيض ، وكادت الشمس تبين من وراء الأفق البعيد ، فانثنى إلى مكانه ، فوقع نظره على حقيبته ، فأقبل عليها يخرج ما بها من طعام .

---

(١) زيد بن عمرو بن نيفل .

ولم يكن طعام الناس فى هذه البقاع يتجاوز الخبز وأدماً من اللبن واللحم والتمر . .

قال الرواة . . لا ندرى كم يوماً أنفق محمد فى هذه المرة التى خرج فيها إلى غار حراء يتحنث . ولكنه على كل حال لم يزد مرة على شهر من الزمان فان الطعام الذى يحمل ما كان ليكفيه أكثر من هذا الشهر ، ثم انه كان بحاجة الى أن يرى زوجه . وأن يعلم أنباء قومه . .

وقال العلماء : لا ندرى أكان يتعبد فى مقامه بالغار على شريعة أم كان يتعبد على غير شريعة . . . فان كانت الأولى فبشريعة من كان قبله من الأنبياء : شريعة ابراهيم ومن جاء بعده من الرسل

ولكن ما حاجتنا إلى أن يختلف العلماء فى هذه العبادة وعلى أى الطقوس كانت تسير . . وهل كان محمد ، وقد وهبه الله العقل الراجح ، الذى يزن الوجود كله ، بحاجة الى علم خاص ليعلم عن طريقه ما يريد أن يعلم . . لقد فتح الكون أمامه ـ وهو فى مقامه بالغار ـ كتابه كله ، وعرض عليه صفحته وترك له أن يقرأ ما يشاء .. فقرأ عن عظمة هذا الكون ما ملأ نفسه إكباراً ورهبة وشوقاً إلى معرفة منشئه ، وهدته فطرته السليمة إلى أن مبدع هذا الجمال وهذا الوجود الذى يمتد تحت قدميه أرضا تقوم عليها الجبال وتنبسط فيها السهول منها ما يزرع ومنها ما تغمره الرمال، ومنها ما تشقه الأنهار .. هذا الوجود الذى يرتفع فوق ناظريه فإذا هو سماء تكاثرت فيها النجوم التى

لا يحصيها عدد ، وتقاطرت عليها الكواكب التى تسبح من هذا الأفق إلى ذاك ومنها القمر المضىء ، ومنها الشمس ذات الدفء واللهب . . . أقول هدته الفطرة إلى أن مبدع هذا الكون وهذه بعض آياته ، لا بد أن يكون إلهاً أسمى كمالاً من هذه الأحجار التى ينظر إليها قومه عابدين وهى لا تعز ولا تنزل ولا تفيد .

لقد امتلأت نفس محمد فى خلواته هذه الطويلة المتكررة فى الغار بمعنى ظل حبيسا ، يتردد فى صدره ولكنه يضغط عليه . وامتلأ عقله بآراء و بوده أن يخرجها للناس كلاماً ولكنه يحس بأن الوقت لم يجىء لكى يذيع ما هداه إليه تفكيره ، وما تفتح له فؤاده .

حجبت الغشاوة أعين الناس جميعًا ، فى هذه القرية وفى غيرها من القرى إلا أن شخصًا واحداً ارتفعت عن عينيه الغشاوة . فرأى و بهره ما رأى ، وشاهد فكان ما شاهده جليلا رائعا . . وكان هذا الشخص هو محمد بن عبد الله . . .

■ ■ ■

وحدث ذات مرة ...

حدث ، ومحمد ينفق وقته فى الغار ، وقد تحركت فى نفسه كل القوى ، وأحس بأنه فى أمس الحاجة إلى أن يتكلم ، وأن يفصح ... رأى أن يستريح قليلا فأدركته سنة خفيفة من النوم قبل أن يعود إلى بيته .. وأحس بأن

الغار قد زاد سكونا على سكونه ، وان شيئا جديداً حدث فيه أو يوشك أن يحدث ، وتطلع حوله فى دهشة فلم ير شيئا ، فعاد إلى فراشه وأدركته سنة النوم من جديد ، ولكنه سمع صوتا كأنما يأتى من بعيد .. من أقصى مكان يتخيله الإنسان لما فيه من عمق وما فيه من رهبة ولكنه كان واضحا مسموعا لديه ، كأنما ينطق لينقش على هذا الصخر من شدة نفوذه وتأثيره ..

قال له الصوت :

— اقرأ ..

فنظر النبى فى منامه فإذا شىء يشبه اللوح قد سطرت عليه سطور لم يفقه منها شيئا .. فقال فى صوت به رجفة :

— ما اقرأ ..

وطاف بذهن محمد أنه الموت قد أقبل ، وأن الساعة قد دنت . فأغمض عينيه يستقبل قضاء الله . ولكنه أحس بكائن يحيطه و يضغطه ضغطا شديدا ثم يعود فيقول له بنفس الصوت ، ولكن أكثر وضوحا ونفوذا

— اقرأ ..

فيجيب محمد عَلَى عجل .

— ما اقرأ ..

فيعود الكائن صاحب الصوت إلى ضغطه بنفس الشدة ، حتى لكأنها كربة الموت تطيف بالبدن . و يعود الصوت مرددا .

— اقرأ ..

فيتكرر الجواب و يتكرر العمل وفى المرة الثالثة يجيب محمد :

— ماذا أقرأ .. وهو يهمس فى نفسه : ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى .

فيقول له الصوت :

« اقْرَأْ باسمِ رَبِّكَ الذِى خَلَق ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق ، اقرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم الذِى عَلم بالْقَلَم . عَلَّمَ الإِنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَم .. »

فردد محمد هذه الألفاظ على عجل : وانصرف عنه هذا الطارق الذى ألم به فى نومه . فهب من فراشه ينظر حوله فلا يرى شيئا ، ولكنه يذكر ما كان فيه منذ لحظة فإذا هو واضح فى نفسه كأنما كان فى أتم يقظته ... روى عن نفسه فقال : « فانصرف عنى . وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا . فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول :

يا محمد . أنت رسول الله . وأنا جبريل . فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء .

يقول : يا محمد . أنت رسول الله ، وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى

ناحية منها إلا رأيته كذلك : فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى .. »

■ ■ ■

ترى ما شأن هـــذا الذى ألم به ، ومن جبريل الذى ناداه ، وأسماه رسول الله ..

ان محمداً عليه السلام ليسير مع خدمه إلى خديجة ، ويذكر أنه لم يناده مناد قبل يومه هذا يجهل طبيعته وكنهه إلا مرة واحدة . فقد حدث وقريش تبنى الكعبة أن كان يشترك معهم فى نقل أحجارها من أجياد ، وكان رفيقه فى عمله عمه العباس . وكان من عادة القوم أن يضع الواحد منهم ازاره على عاتقه ليحمل عليه الحجارة . فما أن رفع عليه السلام ازاره حتى عثر وسقط على الأرض وسمع صوتا يناديه من بعيد أن يسبل ازاره ففعل ونهض وهو فى دهشة من أمره وحمل الحجر على عاتقه من غير وقاء فنبهه عمه إلى ما يصنع ولكنه أبى أن يرفع الإزار بعد أن سمع هذا الهاتف من بعيد[1] .

هذه هى المرة الوحيدة التى سمع فيها صوتا مجهولا يخاطبه . ولكنه كان فى تلك المرة شيئا لا يستوقف النظر؛ أما الآن فقد اقترن الصوت بعمل ، وهذا

(١) الزرقانى على المواهب ص ٢٠٦ جـ ١

هو يحفظ ما أمره الصوت أن يقرأ ، وهذا هو يردده بلسانه ، « اقرأْ باسمِ رَبِّكَ الذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم الذِى عَلَّمَ بالْقَلَم . عَلَّمَ الإِنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ »

كان رسول الله يسير إلى بيته ومن حوله الخدم لا يحس بهم ولا يحس بهذه الأميال الثلاثة التى يقطعها . لقد كان غائبا وهو معهم . وكانت أصوات الملك الذى أسمى نفسه جبريل تسد عليه أقطار نفسه ، وتصرفه عن التفكير فى كل شىء غيرها ..

وما ان وصل إلى بيته حتى ألقى بنفسه فى حجر زوجه خديجة ملتصقا بها وأنفاسه تتردد فى صدره على عجل ، وهى فى دهشة من أمره . فلقد خرج قبل اليوم مرات ، ولقد أنفق من الوقت فى حراء مثل ما أنفق هذه المرة ، ولكنه كان يعود لها مشرق الوجه ضاحك الثغر ..

ترى ما بك يا محمد .. وهل ألم بك حادث جلل ؟ !

أخذت خديجة تخاطب زوجها حتى تنبه لها وأفاق . قالت له فى صوت رحيم يسيل رقة وعذوبة :

— يا أبا القاسم ! فنظر إليها .. فرددت :

— أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى ..

فأخذ يحدثها ، يحدثها بما سمع وما رأى ، ويتلو عليها الآية التى نقشت فى ذهنه ، وكان عليه السلام يطالع فى صفحة وجهها الاطمئنان له والفرح به ، فيعود إليه هدوؤه ، فلما انتهى من قصته قالت له :

— أبشر يا ابن عم ، واثبت . فو الذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة . .

ولم تتمهل خديجة ، فأشارت على زوجها بأن يستريح فهى خارجة إلى بعض شأنها ولا تلبث أن تعود . وجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة ابن نوفل قريبها ، الذى تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما رآه صاحبها ، وما سمعه . وكان ورقة يصغى إليها فى عجب فلما انتهت من قصتها هتف بأعلى صوته ، وهو الشيخ العجوز الذى ضاع بصره .

— قدوس .. قدوس .. والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتينى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة . فقولى له فليثبت .

فرجعت خديجة على عجل إلى زوجها متهللة الوجه فرحة ، وأخبرته بما سمعت من قريبها فحمد ربه حمداً طويلا . وخرج بدوره يطوف بالكعبة .. وبينما هو فى طوافه لقى الشيخ ورقة ، فحدثه وسمع منه .

■■■

وكان رسول الله يوم نزل عليه القرآن فى الأربعين من عمره على أرجح

الأقوال[١] وكان أول نزول الوحى فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان وقيل لسبع وقيل لأربع وعشرين . وعند ابن عبد البر والمسعودى بعث يوم الاثنين لثمان من ربيع الأول سنة احدى وأربعين من عام الفيل .

وان اختلف فى تحديد يوم نزول القرآن فهناك اتفاق تام على أنه كان فى يوم الاثنين ، وأن الشهر كان شهر رمضان ..

روى مسلم عن أبى قتادة أن النبى سئل عن صوم الاثنين فقال : فيه ولدت وفيه أنزل علىّ .

وقال ابن اسحٰق . فابتدئ رسول الله بالتنزيل فى شهر رمضان . يقول الله عز وجل « شَهْرُ رَمضَانَ الذى أُنْزِلَ فيهِ القرآنُ هُدًى للناسِ وبيِّنَاتٍ مِنَ الهدَى والفُرْقَان » .

وقال تعالى : « إنّا أنزَلْنَاهُ فِى لَيلَةِ الْقَدْر . وما أَدْرَاكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْر ؟ ليلةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ من أَلْفِ شَهْرْ ، تَنزَّلُ المَلاَئِكةُ والرُّوحُ فيهَا بإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كلِّ أمْر . سَلَامٌ هِىَ حتَّى مَطْلَعِ الْفَجْر » .

---

(١) هذا ما رواه ابن عباس وأنس فى الصحيحين . ولكن الواقدى قال وهو فى الثالثة والأربعين . وفى تاريخ يعقوب عن مكحول أن القرآن نزل والنبى فى الثانية والأربعين . وبذا يكثر الخلاف حول المدة التى أقامها النبى بمكة بعد البعثة فهى من عشر سنين إلى خمس عشرة سنة ، ولكن القول الراجح أنها ثلاث عشرة سنة .

وقال تعالى : « حَمٓ . والـكِتابِ المُبين . إنّا أنزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكةٍ إنّا كُنّا مُنذِرين ، فيها يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حَكيم ، أمْراً مِنْ عِندِنا ، إنّا كُنّا مُرْسِلين » .

وقال تعالى : « إنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ باللهِ وما أنزَلْنا على عَبْدِنا يومَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتقى الْجمْعان » .. وذلك ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين ببدر . وكان لقاء بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان ..

■ ■ ■

هكذا نزل الوحى على رسول الله ، وانطلق لسانه بالقرآن الكريم .. ولقد سبقت الوحى فترة من الزمن ممهدة له ، هى فترة الرؤيا الصادقة ، وذلك أن رسول الله كان يرى فى منامه أشياء تصدق فى عامة يومه . روت عائشة أم المؤمنين . أول ما بدئ به من الوحى الرؤيا الصالحة . وذكر البيهقى أن مدتها ستة أشهر ...

ويفهم من حديث الرؤيا الصادقة أن رسول الله كان قد وصل نفسيا إلى درجة من الشفافية تسمح للوحى بأن ينزل عليه ، وأن يلقنه القرآن فيحفظه من فوره .. أو كما ذكر رسول الله فى حديثه (كأنما كتبت على قلبى كتابا) إذ أن سرعة الفهم وسرعة الحفظ لابد أن تكون شرطا أساسيا لنقل كلام الله ، ولتلقينه للناس ...

■ ■ ■

وقد ألقت المتصوفة الانجليزية أنى بيزانت Annie Besnt محاضرة فى الهند عن رسول الله ، عرضت فيها لهذه الفترة من حياة النبى السابقة لنزول الوحى بقولها :

« بينما كانت حياة محمد الداخلية على هذه الحال من النفع والطيبة والمعونة أتدرى ماذا كان عليه فى حياته الباطنية ؟ . آه .. من ذا الذى يستطيع أن يصف تلك الأعاصير من الهم والكمد التى كان يكافحها هذا النبى المقبل ، و يبعدها عنه فى الصحراء المحيطة به ، التى كان ينازع فيها نفسه بنفسه ؟ من ذا الذى يستطيع أن يصف واحدة من هذه المعارك الباطنية التى لا يعرفها إلا الرجال المخصوصون بالوحى الالٰهى ؟ فكان محمد ، وقلبه مجال هذه المعارك ، يفزع إلى الصحراء كلما اشتدت حملاتها عليه ، وظل على هذه الحال الشهور تليها الشهور ، حتى بلغت خمس عشرة سنة . فكان يأوى إلى غار فى وسط الصحراء وحيدا ساكنا متأملا راجيا الله . والشك المرير فى نفسه يحيق به ، سائلا نفسه عن معنى الرسالة التى كان يتوقعها حتى سمع صوتا يناديه : اقرأْ باسمِ ربِّكَ .. فأجابه (ما أنا بقارئ !!) أيتكلم وهو عرضة لتيارات الشكوك والهموم ..

« مضت على محمد فى هذه الحال خمس عشرة سنة ، وهى حال من الكفاح والنزاع لا يقدرها حق قدرها إلا الأقلون .

« ولـكن حـدث ذات ليلة صافية الأديم ، أنه بينما كان مستلقياً على الأرض غارقاً فى همومه وآلامه ، أن غشيه نور نزل إليه من السماء . وإذا بملك كريم واقف أمامه يدعوه الى النهوض ليبلغ رسالة الله للناس . وأخذ يعلّمه ما ينبغى عليه أن يعلّم . .

« فهذا الرجل الذى كان أشد الناس اعتزالاً للناس أصبح مصدر حياة أمة برمتها . وقد أمر أن يذهب إليها بنفسه ، وأن يختلط بها ويكلمها باسم مولاه . باسم الله . .

« وهرع إلى زوجه خديجة يقص عليها قصته ، فأجابته بصوتها الهادئ المتّزن بمـا قوى عزيمته وثبت إيمانه . وقد نهض من عند خديجة وهو شاعر بأنه غير ما كان عليه فى أمسه . . بأنه ليس رجلا من عامة الناس ، ولـكنه نبى سيجعل من بلاد العرب مملـكة منظمة ، ودولة مهيبة يحمل خلفاؤه عليها إلى أوربا مشكاة العلم بعد أن انطفأت فيها . وانهم سيؤسسون امبراطوريات قوية ، وانهم سيقومون أمام الله بعبادات قوية ليس لها نظير فى أى دين آخر »

ثم تستأنف بيزانت محاضرتها قائلة :

« نعم فانه لحق على هؤلاء الذين لا يتبعون دين هـذا النبى العربى أن يثقوا من أن ليس بين الأديان البشرية دين يوحى إلى معتنقه عقيدة أشد صحة ولا أكثر تعلقاً بنفس صاحبها من الدين الذى نطق به النبى العربى .

« وإذا صح ما يقول الفيلسوف بين ، من أن العقيدة تثبت صحتها بسيرة أهلها ، فتأمل فى المسلمين ، وانظر كيف تتحكم أقوال محمد الى اليوم فى أعمال الناس . .

« لا يوجد مسلم فى الأرض يخجل من السجود فى الصلاة وان كان حوله حشد من الساخرين الذين يكرهون الاسلام ونبيه . انظر الى أى حد قهرت عقيدة الاسلام كل شعور بالخوف من الموت عند المسلمين . فأين تصادف بطولة مثل بطولة هؤلاء (الدراويش) الافريقيين الذين اقتحموا ميداناً سلطت عليه بنادق كابلنج ، ووقفوا صفًّا بعد صف قبل أن يصلوا الى أعدائهم سائرين إلى الموت ، كما يسير غيرهم الى خطيباتهم من النساء . كل ذلك محبة لنبيهم ومرضاة لله ؟ »

— ٢ —

الوحى

عن ابن اسحق عن خديجة أم المؤمنين :

قالت لرسول الله :

— أى ابن عم . . اتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا « جبريل » الذى يأتيك إذا جاءك ؟ .

فقال لها محمد عليه الصلاة والسلام :

— نعم . . . فقالت :

— فإذا جاءك فأخبرنى به . . . فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع . فقال رسول الله لخديجة :

— يا خديجة . هذا جبريل قد جاءنى . . قالت :

— قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى

فقام رسول الله فجلس عليها . . قالت :

— هل تراه . . قال :

— نعم . . قالت :

— فتحول فاجلس على فخذى اليمنى .

فتحول النبى فجلس على فخذها اليمنى فقالت :

— هل تراه ؟ . . قال :

— نعم . . قالت :

— فتحول فاجلس فى حجرى .

فتحول رسول الله فجلس فى حجرها . . قالت :

— هل تراه الآن . . قال : نعم .

فتحسرت ، وألقت خمارها ورسول الله جالس عليها فى حجرها . . ثم قالت له : هل تراه . . قال : لا . . قالت :

— يا ابن العم اثبت وابشر . فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان .

ولعل خديجة كانت قد سمعت من قريبها ورقة بن نوفل بعض ما يعلم عن شئون الوحى ، فأرادت أن تختبر وحى رسول الله ، بأن عرضت نفسها فى حالة خاصة فزالت الصورة التى كان يراها النبى .

ويفهم من مراجعة السيرة النبوية أنه كانت للوحى حالات .

منها أنه كان يأتى كالرؤيا فى المنام . وقد سبق لإبراهيم عليه السلام أن رأى فى منامه أنه يذبح ابنه فصدق ما رأى وهم بتنفيذه . وكان أول نزول

الوحى على رسول الله فى غارحراء ، وتلقينه سورة القلم ، رؤيا ؛ لأنه كان فى سنة من النوم .

والصورة الثانية للوحى ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه .. وهذا يفهم من معنى الكلمة اللغوى ، إذ أنها تدل على الاعلام فى خفاء وسرعة . وفى هذه الحال كان النبى لايرى شيئاً ، ولكن كان يحس أن معنى جديداً وعاه قلبه فى صورة مخصوصة . وكان عليه السلام يقول: إن روح القدس نفث فى روعى: «لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب» . . والروع فى هذا الحديث معناه النفس ، وروح القدس هو جبريل .

والصورة الثالثة من صور الوحى أن يظهر له الملك فى هيئة رجل يخاطبه حتى يعى النبى عنه ما يقول . وكان كثيراً ما يأتى فى صورة دحية الكلبى (١) ونزول الوحى فى صورة هذا الصحابى كان بعد الهجرة ، إذ أن دحية لم يسلم إلا بعد بدر . ومما يذكر أن دحية هذا كان رجلا وسيما جميل الصورة وقد اختاره النبى لأحد سفاراته إلى الملوك يدعوهم إلى الاسلام .

والحالة الرابعة التى كان يأتى فيها الوحى للنبى مثل صلصلة الجرس . وكانت هذه الحالة أشد ما يعانيه النبى حتى أن جبينه كان يتفصد عرقا فى

(١) دحية كلمة بلغة حمير معناها رئيس الجند . واسم هذا الصحابى دحية بن خليفة بن فضالة بن فروة من قبيلة كلب .

اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به فى الأرض . ولقد جاءه الوحى كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها . . وروى عن زيد بن ثابت قال : كنت اكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا نزل أخذته برحاء (آلام تشبه الحمى) شديدة ، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان ، ثم سرى عنه . وكنت أكتب وهو يملى على فما أفرغ حتى تكاد رجلى تنكسر من ثقل الوحى حتى أقول لا أمشى على رجلى أبداً . ولما نزلت عليه سورة المائدة كاد أن ينكسر عضد ناقته .

وعن عمر بن الخطاب كان صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى سمع عنده دوى كدوى النحل .

وعن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال النبى أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىّ ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال . وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول. قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا .

والحالة الخامسة التى روى أن الوحى ظهر فيها ، هى أن يرى النبى جبريل فى صورته التى خلق عليها . وقد استدل على هذه الرؤية بما ورد فى

سورة النجم « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى » .

وقد أورد ابن القيم حالتين للوحى غير ما ذكر ، هما التخاطب المباشر كما كلّم الله موسى، والأخرى ما أوحاه الله إليه وهو فوق السماوات من فرض الصلوات وغيرها ولم نر فيما بين أيدينا من مراجع ما يؤكد حالة التخاطب المباشر . والحالة التى تليها يمكن أن تفهم مما سبق أن ذكرنا ...

■ ■ ■

ولقد ورد ذكر جبريل فى القرآن فى سورة البقرة .

« قُلْ من كانَ عدُوّا لجبريلَ فإنهُ نزّلَهُ على قلبكَ بإذْنِ اللهِ مُصدِّقاً لِمَا بين يَدَيْهِ وهُدًى وبُشرَى لِلْمؤْمِنين . من كانَ عدُواً للهِ وملائِكتِهِ ورُسُلِهِ وجبريلَ وميكالَ فإنّ اللهَ عَدُوٌ للكافِرين » .

وذكر الزمخشرى فى كشافه وهو يتحدث عن هاتين الآيتين .

روى أن عبد الله بن صوريا من أحبار فدك « اليهود » حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عمن يهبط عليه بالوحى فقال جبريل، فقال ذاك عدونا ولو كان غيره لآمنا بك ، وقد عادانا مرارا ، وأشدها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب بختنصر فبعثنا من يقتله، فلقيه ببابل غلاما مسكينا، فدفع عنه جبريل وقال: ان كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه ، وان لم يكن اياه فعلى أى حق تقتلونه .

وروى أنه كان لعمر رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة وكان ممره على مدراس (كنيس) لليهود فكان يجلس إليهم و يسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد أحببناك و إنا لنطمع فيك . فقال والله ما أجيئكم لحبكم ولا أسألكم لأنى شاك فى دينى . و إنما أدخل عليكم لازداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره فى كتابكم . ثم سألهم عن جبريل فقالوا ذاك عدونا يطلع محمدا على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب . وأن ميكائيل يجىء بالخصب والسلام . فقال لهم : وما منزلتهما من الله تعالى ؟. قالوا أقرب منزلة : جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره . وميكائيل عدو لجبريل . فقال عمر لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر[1] من الحمير . ومن كان عدوا لأحدهما كان عدواً للآخر . ومن كان عدوا لهما كان عدواً لله . ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحى فقال النبى عليه السلام « لقد وافقك ربك يا عمر . فقال عمر لقد رأيتنى فى دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر » .

■ ■ ■

وورد ذكر الوحى فى القرآن مرارا تبعاً لجدال اليهود والكفار فى حقيقة مصدر القرآن ، فمن هذا ما ورد فى سورة الشورى :

(١) لو أن الرواية قالت « أجهل » من الحمير ، لناسبت الحال .

« وما كانَ لِبَشَرٍ أن يُكلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْياً أو مِنْ وراءِ حِجابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولا فيُوحِي بإذْنِهِ ما يَشَاءُ إنه عَلِيمٌ حكيم » .

وفى هذه الآية ذكر لأوجه ثلاثة يخاطب بها الله البشر . وروى أن اليهود قالت للنبى ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر إليه ، فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك . فقال النبى لم ينظر موسى إلى الله ، ونزلت هذه الآية مسجلة هذا الحوار . وعن عائشة : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . ثم قالت أو لم تسمعوا ربكم يقول : وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكلمه اللهُ إلا وَحْيا أو مِن وراءِ حِجاب أو يُرْسِلَ رسُولا فيُوحِي بإذْنِهِ ما يَشَاء ..

وورد فى القرآن فى أكثر من موضع جدال عن الوحى وعن طريقه من ذلك : « وقَالُوا لوْلا أُنزِلَ عليهِ مَلَكٌ . ولوْ أَنزلْنَا مَلَكا لقُضِيَ الأمرُ ثم لاينظرُون ولوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكا لجعلناهُ رجُلا ولَلَبسْنَا عليهم مايلبِسُون[(١)] »

وفى هـذه الآية ما يؤيد أن الوحى كان ينزل على صورة رجل لا يعلم حقيقة أمره إلا النبى .

وفى سورة الأنعام ذكر لما كان يفتريه بعض العرب من أن وحيا ينزل عليهم « ومَنْ أَظْلَمُ ممن افترَى عَلَى اللهِ كذِبا ، أو قال أُوْحِيَ إلىّ ولم يوح

(١) الأنعام .

إليهِ شيء . ومَنْ قال سَأُنْزِلُ مثلَ ما أَنزَلَ الله . ولوْ ترَى إذِ الظالِمونَ فى غَمَرَاتِ الموت والملائِكةُ باسِطو أيْدِيهِمْ أخْرِجُوا أنفسَكم . اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كنتُمْ تقولونَ عَلَى اللهِ غيرَ الحق ، وكنتُمْ عن آياتِهِ تستَكْبِرُون » .

كما أن سورة النجم عرضت لهيئة الوحى إذ ذكرت :

« والنَّجْمِ إذَا هَوَى ، ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وما غَوَى ، وما ينطِقُ عَنِ الهَوَى ، إنْ هو إلا وَحْىٌ يُوحَى ، عَلَّمَهُ شديدُ القُوَى ، ذُو مِرَّةٍ (قوة) فاسْتَوَى ، وهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى ، ثم دَنَا فتدَلّى ، فكانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى ، فأَوْحَى إلَى عَبْدِهِ ما أَوْحَى ، ما كَذَبَ الفُؤَادُ ما رَأَى ، أَفتُمارُونه عَلَى ما يَرَى . ولقَد رآهُ نَزْلَةً أُخرى عِندَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى ، عِندَها جَنَّةُ المأْوَى . إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشَى . ما زَاغَ البَصَرُ وما طَغَى . لقد رأَى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبرى .. »

ويقول المفسرون فى هذه السورة إن النبى عليه السلام رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين إحداهما عند البعثة والثانية عند الاسراء . أو إحداهما فى أجياد والثانية وهو خارج . أو إحداهما عندما فتر عنه الوحى ثلاث سنين أو نحوها وهم أن يتدلى من قمم الجبال فمنعه وطمأنه على أنه نبى مرسل ..

ويذكر المفسرون روايات على أن الرؤية كانت بالعين ، ويصفون جبريل على أن له ستمائة جناح .. الخ .. ولكن التأمل فى هذه الآيات يدل على أن الرؤية كانت بالإلهام بدليل قوله « ما كَذَبَ الفُؤَادُ ما رَأَى » . ورؤية الفؤاد غير رؤية العين بطبيعة الحال .

— ٣ —

فى ثلاث سنين

قارئ سيرة النبى فى جميع مراجعها يثق من أن أول ما نزل من القرآن هو سورة « اقرأ . . . » كما أسلفنا . إلا أننا مع هـذا نجد أقوالاً منسوبة لثقاة من رواة الحديث وأصحاب الفقه والصحبة لرسول الله يذكرون قصصاً أخرى .

فمن هـذا ما رواه كتاب الاتقان للسيوطى عن جابر أنه سئل : أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : يـأَيُّهَا الْمُدَّثِّر . فقال له سائله : أو اقرأ باسم ربك . فقال جابر : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله قال : إنى جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى ، فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وشمالى ، ثم نظرت إلى السماء ، فاذا هو (يعنى جبريل) فأخذتنى رجفة ، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى ، فأنزل الله : يـأَيها المدَّثر . .

وعن جابر أيضاً : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه : بينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت

برأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرجعت فقلت زملونى زملونى فدثرونى . فأنزل الله يـٰأيها المدثر .

وظاهر من هذه الرواية الثانية أن الوحى نزل أول ما نزل بحراء ، وكانت آية القراءة . ثم نزل مرة أخرى ففزع النبى وأوى إلى فراشه ، فأوحى إليه :

« يـٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّر ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (الرجز الأصنام) . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ، فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُور (نفخ فى البوق) . فذلكَ يومَئذٍ يومٌ عَسِيرٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِير . »

ولكن ابن كثير ينقل عن البخارى روايات جابر السابقة ثم يعقب عليها برواية عن ابن عباس يقول فيها : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً فلما أكلوا منه قال : ما تقولون فى هذا الرجل ؟ فقال بعضهم ساحر ، وقال بعضهم ليس بساحر . وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم ليس بكاهن . وقال بعضهم شاعر ، وقال بعضهم ليس بشاعر . وقال بعضهم بل سحر يُؤْثَر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يُؤْثَر . فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فحزن وقنع رأسه وتدثر . فأنزل الله تعالى : يـٰأيها المدثر .

إلا أن ابن كثير فى تفسيره يختار سورة اقرأ ، على أنها أول ما نزل من القرآن ، وهذا هو القول الراجح . إلا أن هذه السورة لم تنزل كلها ، وإنما نزلت منها آياتها الأولى أما بقية السورة فنزلت بعد .

أما سورة المدثر فقد نزلت كلها مرة واحـــدة ، فـكانت أول سورة نزلت كاملة .

■■■

بعد هذا الأمر الصريح الذى جاء به الوحى أن يقوم فينذر عشيرته الأقربين ، فتر الوحى ، ولم يعد رسول الله يلقاه .

ذكر ابن إسحاق أن مدة انقطاع الوحى كانت ثلاث سنين . وفى قول أن المـدة سنتان ونصف . وفى قول ثالث أنها كانت أربعين يوماً ، وفى قول رابع أنهـا كانت خمسة عشر يوماً . وفى قول خامس أنهـا كانت ثلاثة أيام .

ونحن نجد هـذا الاختلاف بين الرواة فى كثير من التفاصيل التى تتصل بسيرة النبى فى مدة مقامه بمكة . فقد أنفق عليـه السلام ثلاثة عشر عاما ، لايكاد التاريخ الصحيح يقف من أحداثها الثابتة إلا على النزر اليسير . ولعل أشد الفترات غموضاً هى فترة انقطاع الوحى التى اختلف فيها القول على النحو الذى ذكرنا ، وفترة الحصار الاقتصادى الذى فرضته قريش على بيت هاشم والذى استمر فيما يقال ثلاث سنين .

ومرجع هذا الغموض فى سيرة النبى قبل الهجرة ، أن معتنقى الاسلام وقتها كانوا قلة قليلة ، وأن صوت الشرك هو الذى ظل مرتفعا . فلم تحوذا كرة

الصحابة الذين أسلم قليل منهم فى مكة، أحداث الأذى والمتاعب التى صادفها النبى وعلى الأخص هذه الأزمات النفسية الحادة التى كانت تعتريه .

ولقد قيل إن النبى ضاق ضيقا شديدا بانقطاع الوحى عنه ، وأنه كان يهيم على وجهه فى الصحراء يناجى ربه ، وبلغ به الأمر مرة أن هَمّ بإلقاء نفسه من قمة جبل شاهق . ويذكرون من أسباب انقطاع الوحى عنه أن يذهب عنه ما كان يجده من الروع ، وليحصل له الشوق إلى العود .

وقد انتهت هذه المحنة الشديدة بنزول سورة الضحى التى تصف هذه الأزمة النفسية .

(والضُّحَى والليلِ إذا سَجَى . ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى . ولَلآخِرَةُ خَيرٌ لكَ مِنَ الأُولَى . ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فتَرْضَى . ألَمْ يَجِدْكَ يَتِيما فآوَى وَوَجَدَكَ ضالاً فهَدَى وَوَجَدَكَ عائلاً فأَغْنَى . فأَمَّا اليَتِيمَ فلا تَقْهَرْ . وأَمَّا السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ . وأَمَّا بنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث) .

وفى هذه السورة يقول الله لرسوله إنه لم يودعه ولم يهجره . ويذكره بنعم الله عليه من ايوائه وكان يتيما، وهدايته وكان ضالا ، واغنائه وكان فقيرا. وازاء هذه النعم يطلب الله من رسوله أن يبر اليتيم والسائل، وأن يتحدث بنعمة ربه عليه .

ويفهم من الظرف الذى نزلت فيه هذه السورة ، أنها كانت السورة الثالثة فى العام الثالث من البعثة ، أى حين كان سن النبى ثلاثة وأربعين عاما أو نحوها .

ثم تتابع نزول القرآن حسب الحوادث ، ولم ينقطع الوحى ، ولم يفتر طويلا الا هذه المرة .

— ٤ —

القرآن وقريش

بدأ رسول الله تبليغ دعوته فى العام الرابع للهجرة بقوله تعالى «فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين» وقوله «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين واخْفِضْ جناحَك لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين، فإنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إنى برىء مِمَّا تَعْمَلون».

فانكرت عليه قريش رسالته ونبوته، ونصبت نفسها لإيذائه وحربه.

ولم يكن لرسول الله من سلاح يستعين به مدة مقامه بمكة، أى طوال ثلاثة عشر عاما غير القرآن الكريم، يتلوه على قريش فتحيط بقلوبهم أغلفة غلاظ حتى لا ينفذ إليها تأثيره. ومع ذلك فقد كان نفوذ القرآن أقوى من عناد قريش..

كان سادتها يجتمعون كثيراً، ويطيلون البحث والجدال فى شأن النبى وفى شأن هذا القرآن الذى ينزل عليه..

تشاوروا مرة ، وأخذوا يديرون القول فيما بينهم : فأحدهم يقول سحر ، والثانى يقول لا : هو شعر . ويقول ثالثهم ما هو بسحر ولا شعر ولكنه كهانة . . فيقول لهم شيخهم الوليد بن المغيرة : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجناة . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . وان أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . .

وكان موسم الحج قد أقبل ، وتهيأ النبى لدعوة وفود العرب إلى الاسلام وإسماعهم القرآن . فتربصت قريش به ، فما ذهب إلى مكان إلا أحاطوا به ، وحذروا الناس من الاستماع « لسحره » . ولقد أغضب هذا العمل النبى ، ونزل قرآن فيه تعنيف شديد للوليد بن المغيرة .

«ذَرْنِى ومَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ، وَجَعَلْتُ لهُ مَالاً ممدُوداً ، وبَنِينَ شُهُوداً ، ومَهَّدْتُ لهُ تمهِيدا ، ثم يَطْمَعُ أَنْ أَزِيد . . كلاَّ إنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيدا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودا . إنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّر فقُتِلَ كيف قَدَّر ، ثم قُتِلَ كيفَ قَدَّر .» إلى آخر السورة .

ولكن هذا الحصار الذى ضربته قريش على دعوة النبى ، وهذا الإنذار الذى وجهته قريش لكبرائها . . كل اولئك لفت نظر وفود شبه الجزيرة إلى

رسول الله وحرصوا على أن يعلموا من أمره بدافع الفضول كل شيء . وبذا ذاع ذكره ، وانتشر أمره ، على ألسنة هذه الوفود بين قبائل العرب جميعاً

■ ■ ■

وأدركت قريش أن أساليبها فى صد الدعوة الإسلاميـة عن المضى فى طريقها لم تفلح ، وأنه لا بد من عمـل آخر . وخصوصاً بعد أن أسلم حمزة ، فاعتزّت الدعوة بإسلامه اعتزازاً كبيراً . .

تشاوروا على عادتهم ، وانتدبوا عُتبة بن ربيعة لـكى يذهب إلى النبى يفاوضه فى تركـ هـذه الدعوة ، على أن يجمعوا له الأموال حتى يصير أغنى قريش ، أو يجعلوا له الرياسات التى يصبح بها أرفعهم مقاماً ، وأعزهم ملـكا؛ أو يلتمسوا له الطب ، حتى يبرأ من هذا الذى يأتيه فينطقه بكلام عجيب . .

وقد سمع النبى لعُتبة صابراً . فلما انتهى قال له :

— أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ فقال نعم

— قال له النبى :

— فاستمع منى . ثم أخذ يتلو عليه قوله تعالى :

« حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا . فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا

وبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ » .

ومضى رسول الله يتلو على زائره سورة فصلت . حتى إذا انتهى عليه السلام الى قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » . ولما تلا هذه الآية سجد لربه سجوداً طويلا ثم رفع رأسه واستوى فى مجلسه وأخذ يكمل الآيات الخمسين تزداد أربعا . حتى إذا فرغ من سورة فصلت ، نظر إلى عُتبة ، فإذا هو ملق يديه خلف ظهره ، يصغى فى هدوء ، وقد بلغت الآيات من نفسه مبلغاً عظيما . قال له النبى :

— قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت . فأنت وذاك

فلم يعقب عتبة بكلمة ، ولا علق بحديث . وانصرف مهموماً ، مطرق الرأس يفكر أعمق تفكير فى هذا الذى سمع والذى يفضله صاحبه على الملك والمال ودواء الطبيب . وهو حقيق بالتفضيل . فما ان رأت قريش صاحبها حتى قال بعضهم لبعض :

— نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا :

— ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال :

ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا

بالسحر، ولا بالكهانة . يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه فاعتزلوه . فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم . فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، و إن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

فقالت له قريش وهى آسفة عليه وعلى ما أصابه :

— سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، فأشاح عنهم وقال :

هذا رأيى فيكم فاصنعوا ما بدا لكم .

■■■

واصطنعت قريش وسيلة أخرى لكى توقف هذا السيل الجارف من آى الذكر الحكيم الذى كان يهدم كل عقبة تقيمها فى سبيله . نظرت فى رجالها ، فوجدت النضر بن الحارث رجلا فطناً ذكى الفؤاد طاف ببلاد الفرس وأقام بالحيرة زمناً ، وتعلم لسان الفرس ، وحفظ قصصهم الشائعة ، ووقف على آدابهم المشهورة . وكان مما حفظ قصص من الشاهنامة مثل رستم واسفنديار ، وسير الملوك السابقين فى بلاد كسرى . فكان إذا أقبل النبى الى الكعبة يحدث القوم ، قام هو من دونه ، وأخذ يقص عليهم من أدب الفرس ما علم ، ويقول : بماذا محمد أحسن منى حديثاً ؟

ولكن النبى كان يتلو

«ن . والقَلَمِ وما يَسْطُرُون . ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون . وإِنَّ لَكَ

لأجْراً غيرَ ممْنُون . وإنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظِيم . فستُبْصِرُ ويُبْصِرُون بِأَيِّكم المَفْتُونُ . إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بمَنْ ضَلَّ عن سَبيلِهِ وهو أعْلمُ بالمُهْتَدِين . فلا تُطِعِ المُكَذِّبِين . وَدُّوا لوْ تُدْهِنُ فيُدْهِنُون . ولا تُطِعْ كلَّ حَلافٍ مَهِين . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيم . مَنَّاعٍ للخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيم . عُتُلٍّ بعْدَ ذلكَ زَنِيم . أَنْ كانَ ذَا مالٍ وبَنِين . إذَا تُتْلَى عليهِ آياتُنَا قال أَساطِيرُ الأَوَّلِين ...»

إلى آخر سورة القلم .

فكان الناس يجاملون النضر وهو يثرثر بقصصه ، ولكن قلوبهم كانت متعلقة بهذا الذى يتلوه محمد عليهم ، وفيه ما فيه من قرع للاسماع عنيف ، وزجر للكفار مخيف ..

وكان ابن عباس يقول: نزل فى النضر بن الحارث ثمان آيات من القرآن قول الله عز وجل «إذَا تُتْلَى عليهِ آياتُنَا قال أَساطِيرُ الأَوَّلِين» وكل ماذكر فيه من الأساطير فى القرآن .

■ ■ ■

ولجأت قريش إلى وسيلة أخرى لتكافح بها تأثير القرآن ، فأوفدت إلى يهود يثرب وفدا يسألها عن الوسائل التى تستطيع أن تقاوم بها هذا الذى جاء به محمد . فطلب منهم اليهود أن يسألوا النبى عن أمور . فلما عادوا إلى مكة ذهبوا إليه وقالوا : يا محمد . أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد

كانت لهم قصة عجب . وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها. وأخبرنا عن الروح وما هى ؟ فقال لهم النبى :

— أخبركم بما سألتم عنه غدا .

وكان رسول الله ينتظر أن ينزل عليه وحى فيه جواب ما سألت عنه قريش . ولكن الوحى أبطأ على النبى خمسة عشر يوما . وطارت قريش فرحا بعجزه عن الجواب . وقالت وعدنا محمد غدا . واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشىء مما سألناه . وقد أحزن النبى انقطاع الوحى عنه حزنا شديدا . وزاد فى قلقه ما كان يتكلم به أهل مكة . وفى ختام هذا اليوم نزل جبريل فابتدره النبى بقوله :

— لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سؤت ظنا .. فرد عليه بالآية الكريمة :

«وما نَتَنَزَّلُ إلا بأَمْرِ رَبِّكَ . لهُ ما بيْنَ أيْدِينا وما خَلْفَنَا وما بيْنَ ذلك وما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا .»

ثم أخذ جبريل يلقن النبى سورة الكهف . وفيها رد على ما سألت قريش وتفصيل رائع لكثير من الأمور التى تشغل الأذهان اذ ذاك، وقد أخذت عليهم إجابات سورة الكهف السبيل فلم يحيروا ردا ولا جوابا .

■ ■ ■

ووجدت قريش أن دخولها فى محاورات مع النبى لن تجديها شيئا .

فانها دائما تعود بالهزيمة . إذ لا قبل لها بتحدى القرآن وسلطانه على النفوس . وقر رأيها على أن تلجأ إلى ما نسميه اليوم المقاومة السلبية بأن تمتنع عن سماع القرآن بتاتا ..

روى ابن اسحٰق :

جعلوا إذا جهر رسول الله بالقرآن وهو يصلى يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له . وكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله بعض مايتلو من القرآن وهو يصلى استرق السمع دونهم فرقا منهم . فان رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع . وإن خفض رسول الله صوته فظن الذى يستمع أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا دونهم أصاخ له يستمع منه .

وقد روى ابن عباس . إنما أنزلت هذه الآية « ولا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ولا تُخَافِتْ بِهَا وابْتَغِ بَيْنَ ذلك سَبِيلا » من أجل هؤلاء النفر .

وإذا كان سادة قريش قد دعوا أهل مكة إلى الانصراف عن سماع القرآن فما كانت بهم هم طاقة على تنفيذ هذا الأمر لما يحسون فى أنفسهم من رقة ومن شغف لسماع هذا التنزيل الذى لا عهد لهم به .

روى ابن اسحٰق أيضا :

إن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله وهو يصلى من الليل فى بيته . فاخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه . وكل

لا يعلم بمكان صاحبه . فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا . . وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم (العامة) لأوقعتم فى نفسه شيئا . ثم انصرفوا ..

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة . ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال له :

— أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال :

— يا أبا ثعلبة . والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها . وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . فقال له الأخنس :

— وأنا والذى حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته وقال له :

— يا أبا الحكم . ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال :

— ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرف أطعموا فاطعمنا .

وحملوا فحملنا . وأعطوا فاعطينا . حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك مثل هـذه ! . والله لانؤمن به أبداً ولا نصدقه . . فقام عنه الأخنس وتركه .

وهكذا كانت قريش فى حيرة من أمرها . ترق قلوبها للقرآن . ولـكن نزاع العصبية وشارات الرياسة وأوضاع الجاهلية كل ذلك كان يحجبها عن الاسلام وعن اتباع محمد عليه السلام .

وكما كانت قريش تمنع أهل مكة من سماع القرآن ، كـذلك كانت تحول بين أى مسـلم و بين أن يتلو القرآن . وقد خطر لعبد الله بن مسعود مرة أن يذهب إلى الـكعبة و يتلو بعضاً منه . فسار حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى انديتها وقام عند المقام ثم قرأ بصوت عال « بِسْمِ اللهِ الرحمٰنِ الرَّحيم . الرحمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ »

فأصاخت قريش السمع حتى تنبهوا إلى أنه يتلو القرآن فصـاح أحدهم إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد فقاموا اليه فجعلوا يضربون وجهه وجعل يقرأ حتى آذوه أذى شـديداً وأصـابوه بجروح فى وجهه . فلما عاد إلى أصحابه من المسلمين قالوا له : هذا الذى خشينا عليك . فقال عبد الله : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ولئن شئتم لاغادينهم بمثلها غدا . فقال له المسلمون :

— لا . . حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون .

* * *

واشتد أذى قريش للمسلمين فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة . ثم حدثت بعد هذه الهجرة مباشرة غزوة جديدة من غزوات القرآن لقلوب قريش إذ افتتحت معقلا من أشدها بنياناً وأمنعها قوة ونعنى به قلب عمر ابن الخطاب .

كان ذلك فى العام السادس للبعثة ، وقيل بعد اسلام حمزة بثلاثة أيام . ولم يكن عدد المسلمين قد زاد فى ذلك الوقت على اربعين رجلا مما يدل على عنف المقاومة التى لقيها النبى مدى هذه السنوات الست .

وقد قيلت فى اسلام عمر روايات أكثرها منسوب له ومنها :

روى أسامة بن زيد عن ابيه عن عمر بن الخطاب قال : اتحبون أن اعلمكم كيف بدأ اسلامى . . كنت من أشد الناس على رسول الله . فبينما أنا فى يوم مار فى بعض طرق مكة إذ لقينى رجل من قريش فقال : أين تذهب ؟ إنك تزعم أنك هكذا ، وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك . قلت : وما ذاك ؟ قال : اختك قد صبأت . فرجعت مغضبا . وقد كان صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة ، فيكونان معه ، ويصيبان من طعامه . وقد ضم إلى زوج اختى رجلين . فجئت حتى قرعت الباب فقيل : من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب . وكان القوم جلوسا يقرأون صحيفة

معهم، فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا، فقامت المرأة ففتحت لى ، فدخلت عليها وقلت : يا عدوة نفسها . قد بلغنى عنك أنك صبأت [خرجت عن دينها] ثم ضربتها فسال الدم ، فلما رأت الدم بكت وغضبت وقالت :

— اتضربنى يا عدو الله أن اوحد الله ؟!. لقد اسلمنا على رغم أنفك . وما كنت فاعلا فافعل .

ودخلت وأنا مغضب فاذا كتاب فى ناحية البيت . فقلت : هذا الكتاب اعطينيه . فأبت إلا أن اغتسل . فاغتسلت وأخذت الكتاب فاذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم . فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت الصحيفة من يدى، ثم رجعت إلى نفسى فاذا فيها : «سبّحَ لِلّهِ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَٱلأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ». وأخذت أقرأ حتى بلغت «آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» ـ إلى قوله ـ : إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وفى رواية أخرى السورة التى قرأها « طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَى»

وزادت رواية أخرى أنه كان مع سورة طه سورة إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ.

وواضح من اختلاف الروايات أنه لا يمكن الجزم بما قرأ عمر على وجه التحديد . ولكن من المؤكد أنها آيات قليلة ، ذلك لأن القرآن لم يكن فى ذلك الوقت يكتب كما نكتب الآن فيسهل تدوين السورة فى صحيفة أو نحوها

على الورق . كما أن الكتابة فى ذلك الوقت لم تكن قد تهذبت وصغرت حروفها ، وإنما كانت تكتب بحروف كبيرة . وكتابة سورتين من القرآن أو سورة يحتاج إلى عدد من هذه الصحف التى كانوا يكتبون عليها .

ومهما يكن أمر هذا الذى قرأ عليه بن الخطاب ، وأمر السور أو الآيات التى قرأها ، فقد كانت قطرات الدماء التى سالت من رأس اخته ، وكان فزع زوجها الذى هم عمر بالبطش به ، وأمر هذين الرجلين المسلمين اللذين فرا لمرآه . . كان هذا كله سببا فى أن رقت حاشيته ولانت قناته ، فما أن قرأ آيات من القرآن حتى سكنت نفسه ، وثاب إلى رشده ، وأدرك جمال هذا الذى يقرأ وسموه ، فأعلن اسلامه ، وذهب إلى النبى وأصحابه حيث كانوا يختفون فتشهد وبايع ، وخرج إلى الملأ يقول : اسلمت . . اسلمت .

وفى رواية أخرى عن ابن إسحق تهمل قصة فاطمة بنت الخطاب وما حدث فى بيتها ، وتقول : إن عمر سمع رسول الله فى الليل وهو يتلو القرآن فرقّ له قلبه وبكى وداخله الإسلام . ومكث فى مكانه حتى انصرف النبى فتبعه عمر . فالتفت النبى فى أثناء طريقه فرآه ، فظن أنه يتبعه ليؤذيه فزجره وقال له : ما جاء بك الساعة ؟ فرد عمر : جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، فحمد النبى الله وقال : قد هداك الله . ثم مسح صدره ودعا له بالثبات .

وفى رواية غير هذه أنه سمع رسول الله يتلو سورة الحاقة . يقول عمر : فجعلت أتعجب من تأليف القرآن ، فقلت هو شاعر كما قالت قريش . فقرأ :

«إنّهُ لقَوْلُ رَسُولٍ كريمٍ ، وما هُو بقولِ شاعرٍ قَليلاً ما تُؤْمِنونَ». فقلت هو كاهن علم مافى نفسى . فقرأ : «وَلاَ بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرون» إلى آخر السورة . فوقع الاسلام فى قلبى كل موقع .

ولما أسلم عمر خرج أمام رسول الله وهو متهلل الوجه حتى دخل الكعبة، فقالت قريش :

— أتاكم عمر مسروراً . . ما وراءك ياعمر ؟ فصاح بهم :

— ورائى لا إله إلا الله . محمد رسول الله . فإن تحرك أحد منكم لأمكنن سيفى منه .

٥

بين مكة والمدينة

مضت الأيام يشبه بعضها بعضا . النبى يتلو على قريش القرآن ، وقريش تبالغ فى الانصراف عنه وعن قرآنه وتبالغ فى السخرية منه حتى اشتد به الضيق . وكان الوحى عونه الأكبر فى هذه الأوقات العصيبة . نزل عليه بقوله تعالى : « فاصْدَعْ بما تُؤْمر ، وأَعرِضْ عَنِ المُشْرِكين . إنّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئين . الذينَ يَجْعَلُونَ مع اللهِ إلٰهاً آخَرَ فَسَوفَ يَعلَمُون » .

ولقد أنفق عشر سنين منذ بعث وهو على هذه الحال يتلفت إلى كل وجه من وجوه الأفق عسى أن يجد منفذاً لرسالته ، فلا يكاد يستبين الطريق. ونزلت به نازلة كارثة هى موت زوجه خديجة وعمه أبى طالب .

ولقد كانت الزوجة كما كان العم حاميين لمحمد وللدعوة ، يصدان عنه بالنفوذ أذى قريش ، فلما ذهبا اشتد عليه وعلى أصحابه الأذى، وتجهم أمامه وجه الحياة أكثر من ذى قبل .

ذهب إلى الطائف يلتمس نصرة ثقيف ، فلم يجد عند ثقيف نصرة .

وعاد يستقبل وفود العرب وهى قادمة إلى مكة يعرض نفسه عليها ، معززا دعوته بقرآنه . وكانت هذه الوفود يختلف بعضها عن بعض ثقافة وحسن إدراك . فمنها من كانت تعلم بعض العلم ، وتزن الأمور بميزان العقل ، ولا ترى حرجا فى أن تصغى إلى نبى الدين الجديد . وكان رسول الله يذهب إلى حيث كانت تضرب كل قبيلة خيامها ، فيقف على بابها ويقول لأهلها: يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد . وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى ابين عن الله ما بعثنى به» .. ثم يتلو عليهم شيئا من القرآن ..

سمع له مرة سويد بن الصامت ، وكان يسمى الكامل لعلمه وعقله ، فقال للنبى بعد أن سمع كلامه

— فلعل الذى معك مثل الذى معى . فقال له النبى :

— وما الذى معك ؟ قال سويد

— مجلة لقمان . فقال له النبى :

— اعرضها علىّ

فعرضها عليه فقال النبى :

— إن هذا لكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا . قرآن أنزله الله تعالى علىّ هو هدى ونور . ثم أخذ يتلو عليه بعض آيات الذكر ، فأصغى لها سويد وأحسن الإصغاء، ثم تمتم :

— إن هذا لقول حسن !!

ولقد أنتجت هذه الحركة فى نهاية الأمر، ونعنى بها حركة التصدى لوفود القبائل والتماس تأييدها بعد عرض الإسلام عليها إذ كان من بينها وفد من الخزرج أكثر علما وتهذيبا من غيره من الوفود . فقد كان اليهود يعيشون معهم ويعلمون الكثير من أمر الوحى وأمر السماء وأمر الأنبياء . وكانت الأحاديث تدور فى يثرب من فم إلى فم أن نبيا يوشك أن يظهر فما ان دعا رسول الله هذا الوفد وحاوره قليلا حتى آمن به وصدق له . وعاد الوفد يستشير قومه فرضى القوم بالإسلام وكانت بيعة العقبة الأولى .

وحرص النبى على أن يعلم هؤلاء المسلمون الأول من رجال القبائل عن القرآن أكثر مما تسمح به مقابلة قصيرة الأمد يحوطها التكتم والخفاء، فبعث معهم مصعب ابن عمير وأمره أن يعلم أهل يثرب القرآن ويبصرهم فى شئون الدين . ولذا يعد مصعب أول معلم للقرآن ، وقد أطلقوا عليه فى يثرب اسم (المقرئ) .

ولقد اتبع (المقرئ) ومن أسلم من أهل يثرب طريقة رسول الله فى حمل الناس على الإسلام ، كانوا يعرضون عليهم صيغة يسيرة للإسلام هى :

(أن تغتسل وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين) .

وبعد هذا يتلو الداعية القرآن ، فكان القرآن يشق الطريق إلى القلوب التى لم تجف ولا تزال فى نضارتها .

ثم كانت بيعة العقبة الثانية، وظهر على أثرها أن يثرب هى معقل الإسلام، وأنه لم يعد فى مكة خير للاسلام ، وقد اختار فى هذه البيعة الثانية اثنى عشر نقيباً ليكونوا أئمة الدعوة بين قومهم ، وكان سلاح الدعوة الأول كما ذكرنا تلاوة القرآن .

وقد أصبحت يثرب بمن أسلم فيها مستقرًا أميناً لدعوة الإسلام ، فأذن النبى للمسلمين من مكة فى الهجرة ثم جاءه الإذن بالسفر إليها ، وكانت مهمة النبى وهو يهاجر واضحة وهى أن يكره قريشاً على الاسلام بحد السيف بعد أن بذل لها النصح ثلاثة عشر عاماً فلم تزد إلا عتوًا .

وهناك خلاف فى الأذن بالقتال هل كان قبل الهجرة أم كان بعدها . أما ابن إسحق فيقول : فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى الحرب وتابعه هذا الحى من الأنصار على الاسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليه من المسلمين أمرَ رسول الله أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار .

ويقول عامة المفسرين إن الأمر بالقتال نزل بعد الهجرة ، ففى الزمخشرى كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله أذى شديداً . وكانوا يأتون رسول الله بين مضروب ومشجوج يتكلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بالقتال ، حتى هاجر فأنزلت آية القتال . وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية . إلا أنه يورد قولاً آخر وهو أن آية

القتال نزلت فى قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم فى مقاتلتهم .

وقد وردت آية القتال بين آيات سورة الحج ونصها :

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ . ولَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ ومَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً . ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

وتكرر بعد هذا أمر القرآن بالقتال وازداد تأكيدا فى سورة البقرة « وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ولَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (وجدتموهم) وأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، والْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ . ولَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » .

■■■

وأخذ النبى ينفذ برنامجه الجديد على نحو ما فصلناه فى كتبنا الأربعة عن السيرة المحمدية . وكان الوحى عونه فى أعماله كلها .. إلا أن دور القرآن فى هذه الفترة لم يكن دور هجوم فى أغلبه كما كان فى الفترة المكية . بل كان فى بعض الأحيان دور دفاع وفى البعض الآخر دور اخبار مشوب بهجوم .. ذلك أن يثرب كانت مستقر اليهود، وقد تحفز اليهود لمهاجمة العقيدة الإسلامية مستندين إلى أنهم أهل كتاب سابق على القرآن . فكان الوحى ينزل بحوارهم ومجادلتهم ، ويرد هجومهم فى لطف حينا وفى عنف بالغ أشد القوة حينا آخر .. ولقد ذكرنا فى كتابنا عن (النبى واليهود) أن ثلث القرآن تقريبا إنما نزل فى الدفاع عن العقيدة المحمدية ضد مزاعم اليهود .. فأى جهد أنفق وأى عناء بذل .. وكانت للوحى مهمة أخرى إلى جانب كفاح اليهود وهى الكشف عن المنافقين وتشديد النكير عليهم . وفى هؤلاء القوم نجد آيات كثيرة جدا لا تصل فى كثرتها إلى آيات اليهود ولكنها تستغرق قسما من طوال السور ..

وإلى جانب تأييد الوحى للبرنامج الحربى الذى شرع فيه رسول الله ، فإنه أخذ ينزل بتشريع الإسلام ، ووضع أسسه الخلقية ، والاجتماعية .

■■■

وإذا أضفنا المدة التى نزل فيها الوحى بمكة ، إلى المدة المدنية فيكون

نزول القرآن قد استغرق ثلاثا وعشرين سنة . ولكن لا يمكن الجزم بمقدار المدة بين أول آية نزلت وآخر آية نزلت على وجه التحديد .

أما الشيخ الخضرى فى كتابه «تاريخ التشريع الإسلامى» فيحدد المدة على الوجه الآتى :

أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم منجما من ليلة اليوم السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده حيث أوحى إليه فى غار حراء الذى كان يتحنث فيه أول آية وهى (اقْرَأْ ..) إلى تاسع ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة والثالثة والستين من ميلاده حيث أوحى إليه بآخر آية وهى « اليَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عليكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينا » فالمدة بين مبتدإ التنزيل ومختتمه اثنتان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوما .

ثم قال الشيخ : لم ينزل بعد حجة الوداع على النبى شىء من الفرائض ولا تحليل شىء ولا تحريمه ، وإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعش بعد نزول هذه الآية إلا احدى وثمانين ليلة .

ويقسم نفس المصدر عهد نزول القرآن إلى القسمين المشهورين ، وهما عهد مكة وعهد المدينة . ويحدد مدة كلٍّ كما يأتى :

الأولى — مدة مقامه بمكة وهى اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة

عشر يوما . من رمضان سنة ٤١ إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ من ميلاده وما نزل من القرآن منها يقال له المكى .

الثانية — ما بعد الهجرة وهى تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة ٥٤ إلى تاسع ذى الحجة سنة ٦٣ من ميلاده ، وسنة عشر من الهجرة وما نزل من القرآن فيها يقال له المدنى .

ومكى القرآن أكثر من مدنيه إذ يبلغ ١٩ من ٣٠ ومدنيه نحو ١١ من ٣٠ .

ومن العسير أن نسير مع كتاب تاريخ التشريع فنقر هذا التحديد الدقيق بالسنة والشهر واليوم ، وكاد يورد الساعة أيضا . ذلك أن هذه التواريخ إنما تعتمد على روايات وقد تعددت الروايات وكثرت . واختلف الفرق بينها كما ذكرنا فى بدء نزول الوحى ، إذ أمكن أن يوجد خلاف على خمس سنين دفعة واحدة !! ولا نستطيع أن نجرح رواية ونعتمد أخرى ، ذلك أن أغلبها يعتمد على سند يؤخذ به . بل إن الخلاف تجاوز مدة نزول القرآن إلى تعيين آخر آية نزلت من القرآن .

فمن هذه الروايات ماأورده الاتقان إذ يستهل البحث الخاص بهذه النقطة بقوله : « آخر ما أنزل فيه اختلاف » .. عن البراء أن آخر آية نزلت : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَالَةِ » . وآخر سورة نزلت براءة . وأخرج البخارى عن ابن عباس أن آخر آية نزلت آية الربا . وأيد عمر

ابن الخطاب هـذه الرواية مرتين . وأخرج النسائى عن ابن عباس أيضا أن آخر شىء نزل من القرآن (واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيه إلى اللهِ ..) وأورد الطبرى هذه الرواية نفسها .

وإذا كان الشيخ الخضرى يجزم بأن الوحى لم ينزل على النبى قبل وفاته مدة احدى وثمانين ليلة ، فهذه رواية عن سعيد بن جبير قال : آخر ما نزل من القرآن كله « واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيـه إلَى اللهِ .. » وعاش النبى بعد نزول هذه الآية ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول .

كما يورد الاتقـان روايات أخرى أن آخر آية نزلت هى آية الدين . ويعلق السيوطى على هذا الاختلاف فى الروايات بقوله (ولا منافاة عندى بين هذه الروايات فى آية الربا ، وآية واتقوا يوما ، وآية الدين لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف ولأنها فى قصة واحدة فاخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر .. وذلك صحيح !)

وإذا حاول السيوطى أن يوفق بين هـذه الروايات فماذا هو قائل فى رواية تسند إلى ابن عباس أن آخر سورة نزلت: «إذَا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْح» ورواية أخرى تسند إلى عائشة أن آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح ..

ولقـد أدهش السيوطى إن ترد روايات أخرى منسوبة لابن عباس ولمعاوية بن أبى سفيان ولأم سلمة تقول إن آخر ما نزل : « فمَنْ كانَ يَرْجُو

لِقَاء ربّه » . وآية « ومَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّم » وآية « فاسْتَجَابَ لهمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ » .

ويورد السيوطى فى آخر هـذا الفصل ما يدل على حيرته بين هـذه الروايات المتناقضة والتى ينسب بعضها إلى مصدر واحد . فيقول (من المشكل على ماتقدم قوله تعالى «اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لكُمْ دِينَكم» . فإنها نزلت بعرفات عام حجة الوداع، وظاهرها اكمال جميع الفرائض والأحكام قبلهـا . وقد صرح بذلك جماعة منهم السرى . فقال لم ينزل بعدها حلال ولا حرام . مع أنه ورد فى آية الربا والدين والكلالة أنها نزلت بعد ذلك . وقد استشكل ذلك على ابن جرير وقال الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم باقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون . ثم أيده بما أخرجه من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس (أيضا . !!) قال كان المشركون والمسلمون يحجون جميعا . فلما نزلت (براءة) نفى المشركون عن البيت وحج المسلمون لا يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين . فكان ذلك من تمام النعمة . وأتممت عليكم نعمتى)

■ ■ ■

هذا عن آخر آية نزلت وما يقال فيها . وأما المدة التى نزل فيها القرآن ، فهى ايضاً موضوع خلاف ، وحسبنا أن نذكر جملة السيوطى فى هذا الباب :

نزل القرآن منجما فى عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين على حسب الخلاف فى مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة ..

■ ■ ■

ونزول القرآن « منجما » يعنى أنه نزل مفرقا كل بضعة آيات معاً .. وذلك أن الوحى كان ينزل بالقرآن مبيناً للحوادث الجارية التى تعاقبت على حياة النبى من بعثته إلى وفاته .

ونرى فى القرآن آية : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » .

وآية « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » وآية « وَإِنَّهُ فى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ » وآية « يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » .

وقد عرض المفسرون للوح المحفوظ ، وللليلة القدر ، ولأم الكتاب فى تفسيرات كثيرة جلها أنشأه الخيال وتفنن فيه . فمن ذلك ما روى البغوى عن ابن عباس (دائماً ابن عباس !!) أن فى صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الاسلام ، ومحمد عبده ورسوله . فمن آمن بالله وصدق بوعده ، واتبع رسله أدخله الجنة . قال : واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافتاه من الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش وأصله فى حجر ملك . .

وهـذا كما ترى خيال بديع ، وإن كنت لا أدرى إذا وكل لرسام أن يخرج لنا صورة ملونة لما وصف الراوى عن ابن عباس هل يستطيع أم لا ؟ .

وغاية ما نقول فى اللوح المحفوظ ، وفى ليـلة القدر وفى أم الـكتاب ان سبيل فهم دلالتها الدقيقة قد أغلق علينا ، وان علينا أن نؤمن بها كما هى ، دون أن نتورط فى الشرح ، وأن نسرف فى الخيال . . وقد حاول بعض المستشرقين أن يصل من بحث الدلالات اللغوية لهذه الألفاظ إلى فهم معانيها كأن يقول أحدهم مثلا ان ليلة القدر هى ليلة المقدرة « allpower » ولـكن هذا أيضاً كلام لا يفيد كثيراً . والشخص الوحيد الذى يستطيع تفسـير هذه الألفاظ هو النبى عليه الصلاة والسلام ، ومنذ انتقل الى الرفيق الأعلى فقد انتقل معه تفسير ما أغلق من كلام القرآن . .

ولـكنا نفهم أيضاً من آيات اللوح المحفوظ وليلة القدر ، وأم الـكتاب ، أن القرآن نزل أول مانزل جملة واحدة وأن الوحى كان يهبط به آيات آيات على قلب النبى حسب الحوادث العارضة . وذلك أنه قد سبق فى علم الله أن هذه الحوادث ستحدث فقال فيها كلامه ، ثم هبط بهذا الكلام الإلهى الوحى كل قسم منه فى موعده

وآيات القرآن — فيما نرى — خاصة بالنبى محمد لا بغيره من الأنبياء ، لأنها متصلة بما جرى له من أحداث صاحبت دعوته هو . . ولذا لا يفهم ماورد

عن الحسن البصرى من أنه قال : ان هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه . .

وكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل. وقد صح نزول عشر آيات فى قصة الإفك جملة . وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنين جملة . وصح نزول جملة « غيرِ أُولِى الضَّرَر » وحدها وهى بعض آية .

والحكمة فى نزول الآيات قليلة العدد على هذا النحو هى فى أن يتمكن النبى من حفظها ومن تعليمها للناس ، ومن إملائها على كتابه ليدونوها .

وقد وردت فى القرآن آية بهذا المعنى هى : « وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ، وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً » . . فقد ذكر ابن عباس أن القرآن أنزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك مفرقاً فى عشرين سنة . وقرأ « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرا » . « وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاس على مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً » والمكث هو التمهل والتأنى . .

■■■

ولنزول القرآن حسب الحوادث الجارية شواهد كثيرة جداً وهى كل القرآن تقريباً . . فمن ذلك مثلا ما اتصل بعمر بن الخطاب وكان هو سبباً فى نزوله . فقد روى عنه أنه قال :

وافقت ربى فى ثلاث : قلت يارسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت الآية : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » . وقلت يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهنّ أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله نساؤه فى الغيرة فقلت لهن : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » فنزلت كذلك .

وفى رواية أخرى أنه لما نزلت الآية : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ » ، قال عمر بن الخطاب قلت أنا فتبارَكَ اللهُ أحسن الخالقين . فنزلت الآية كما نطق عمر . « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »

وفى طبقات ابن سعد عن الواقدى : حَمَل مصعب بن عمير اللواء يوم أُحد فقطعت يده اليمنى فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » ثم قطعت يده اليسرى فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ . . » ثم قتل فسقط اللواء . قال محمد بن شرحبيل وما نزلت هذه الآية : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » يومئذ حتى نزلت بعد ذلك

وذكر البخارى من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله أملى عليه : « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ » فجاء ابن أم مكتوم وقال : يارسول الله ، لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى فأنزل الله « غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ » .

■■■

وأورد كتاب تاريخ التشريع :

كانت الآيات التشريعية ، وهى آيات الأحكام تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغالب جواباً لحوادث فى المجتمع الإسلامى ، وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول . وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتباً وجعلوها أساساً لفهم القرآن . وأحياناً كانت تنزل الآيات جواباً عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين، وقليلا ما كانت تنزل الأحكام مبتدأة . وضرب أمثلة للقسمين .

أولها — أرسل رسول الله مرثداً الغنوى إلى مكة ليخرج منها قوماً مسلمين مستضعفين . فلما وصلها عرضت امرأة مشركة نفسها عليه . وكانت ذات جمال ومال . فأعرض عنها خوفاً من الله . ثم أقبلت عليه تريد زواجه فقبل ووقف ذاك على إذن رسول الله ، فلما قدم المدينة عرض قضيته عليه وطلب إجازة ذلك الزواج ، فنزل قوله تعالى فى سورة البقرة « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ . وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ . وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا . وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

ثانيهما — وردت فى القرآن أحكام كثيرة عقب أسئلة صدرت من المؤمنين أو من غيرهم، من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ : قُلْ . . » و « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ : قُلْ . .» وفى سورة النساء : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فى الْكَلَالَةِ » إلى غير ذلك من الآيات .

أما الأحكام التى أنزلت بدون حادث أو سؤال فقليلة . وقلما ترى حكماً لم يذكر له المفسرون حادثاً أنزل الحكم مرتباً عليه .

النبى والقرآن

القرآن هو معجزة رسول الله الكبرى ، وسلاحه الذى شق أمام دعوته الطريق وغزا به القلوب . . ولم يعن نبى قبل محمد بحفظ كتابه والدفاع عنه ضد التحريف والتبديل . . والذى لا شك فيه أن ذاكرة رسول الله كانت أول واعٍ للقرآن وحافظ له ، ثم انتقلت إلى ذاكرة صاحبه أبى بكر وتلميذه علىّ ثم وعاه على تفاوت فى المقدرة على الحفظ بقية أصحابه .

ولقد كان النبى لا يكتفى فى صون القرآن بما تعيه ذاكرة الناس ، ولكنه كان يأمر من يستطيع الكتابة من أتباعه بتدوينه . وكان زيد بن ثابت يكتب له . وقد وردت روايات كثيرة تؤيد قيامه بهذه المهمة . من هذا ما ذكر ابن حاتم عن زيد نفسه قال : « كنت أكتب لرسول الله ، فإنى لواضع القلم فى أذنى إذ أمر بالقتال فجعل رسول الله ينتظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال : كيف لى يارسول الله وأنا أعمى ، فأنزلت : « .. لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ » . ومن هذه الروايات أيضاً ما ورد فى البخارى من حديث زيد

ابن ثابت أن رسول الله أملى عليه « لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ . . » الخ

والذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة من أصحابه الأول أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والزبير ، وقد أحصى كتاب الإسلام والحضارة العربية اثنين وأربعين كاتبا كانوا يؤلفون الديوان النبوى .

ولكنا نقلب مابين أيدينا من مراجع لكى نظفر بصورة دقيقة واضحة عن طريقة كتابة الوحى فى الفترة المكية التى استمرت نحو ثلاثة عشر عاما فلا نكاد نظفر بشىء يستحق الذكر .. حقيقة كان هؤلاء الصحابة الذين ذكرنا بجوار النبى ، بعضهم منذ الدقيقة الأولى والبعض أسلم بعد سنين ، ولكن وجودهم لا يدل على أنهم كانوا يقومون بمهمة تدوين القرآن فى الفترة المكية .. وذلك لأن هذه الفترة كانت فترة اضطراب عنيف فى حياة الإسلام ، فقد كان معتنقوه قلة قليلة جدا لا تكاد تذكر ، وكانت قريش تلاحقهم بأذاها المتصل وتضيق عليهم الخناق ، فهل يمكن أن نفرض وجود نظام ثابت لتدوين الوحى فى هذه الفترة ؟

لقد لاحظنا من قبل أن مدة مقام النبى فى مكة لم تتضح معالمها بعد وضوحا كافيا ، وأن المؤرخين الأول مروا سراعا على كثير من مراحلها لما غاب عنهم من العلم بتفاصيلها ..

وإذن فنحن لا نستطيع أن نجزم بأن القرآن لم يدون فى الفترة المكية ولكننا على ثقة من أن وسيلة العلم المؤكد لدينا بنبأ هذا الموضوع ليست ميسورة ولا هى ممكنة .. وعلى هذا فإنا نلجأ إلى بعض فروض ، ونستند إلى إشارات خفيفة مفرقة فى بعض الكتب .

فنحن نعلم مثلا من قصة إسلام عمر أن المسلمين كانوا يختبئون مع النبى فى بيت عند الصفا ، وقد اغلقوا من دونهم الباب ولم تعلم قريش مكان هذا البيت ، ولكن من المؤكد أن هذا البيت — وهو المدرسة الأولى للقرآن — كان المكان الذى حفظ فيه الصحابة الأول الكثير من آيات الذكر .

■■■

وتقول دائرة المعارف الإسلامية نقلا عن البلاذرى أن حفصة وأم كلثوم كانتا تعرفان القراءة والكتابة ، وأن عائشة وأم سلمة كانتا تعرفان القراءة ولا تعرفان الكتابة .. ولكن هذه الرواية لا تفيدنا فى شىء لأننا نبحث عن التدوين فى الفترة المكية ، لا المدنية ..

إلا أن نفس المصدر ينقل عن الازرقى أن بلداً مثل مكة كانت تكثر فيه التجارة مع الخارج ، ما كان يمكن أن يخلو من كثيرين يكتبون ويقرأون . فالتجارة تحتاج إلى حساب والحساب يحتاج إلى تدوين . ومن هنا يتدرج الباحثون إلى البحث فى : هل كان النبى يعرف القراءة والكتابة أم لا ؟

أما أكثر المستشرقين فيقولون إن كلمة (أمى) التى وصف بها النبى ، غامضة ، ولا تدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة وقد تكون نسبة إلى كلمة (أمة) أى أنه النبى المبعوث لهذه الأمة .

وتثير دائرة المعارف إشكالا آخر . وهو أنه ورد فى سورة العنكبوت الآية « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ، وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » وهى تدل على أنه تعلم القراءة فى الكبر ، أى بعد نزول القرآن ، وإن كان التعبير غامضا أيضا .

وليس التعبير غامضا ، ولكن التخريج الذى خرجته الدائرة فاسد ، إذ أن لفظ الآية صريح كل الصراحة فى الدلالة على أن أهل مكة عرفوا عن النبى قبل نزول الوحى أنه لم يكن يتلو كتابا ، ولا يكتب بيمينه . ولو أنه كان كذلك إذن لارتاب المبطلون ، بأن يذكروا أنه كانوا يخلو إلى نفسه فيكتب القرآن ويعده ثم يخرج للناس فيتلوه عليهم .

وآية أخرى وردها دائرة المعارف وهى : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ، فَهِيَ تُتْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا[1] » . ولا يفهم من هذه الآية شىء مما أريد حمله عليها . إذ أنها تدل فى بساطة على أن كفار قريش كانوا يدعون أن رسول الله يكتب ما يملى عليه من أساطير الأولين . وليس كل

---

(١) سورة الفرقان .

ما يدعى الكفار صوابا ، بل هو هجوم يقصد منه تجريح القرآن واضعاف شأنه . ولعل المعنى يكون أكثر وضوحا إذا تلونا الآية السابقة والآية التالية. إذ يقول الله تعالى « وقالَ الذينَ كَفَرُوا إنْ هَـذَا إلَّا إفْكٌ افتَرَاهُ وَأَعَانَه عليهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاءوا ظُلْماً وَزُورا . وقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عليهِ بُكْرَةً وأَصِيلا . قُلْ أَنْزَلَهُ الذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إنهُ كانَ غفُوراً رَحِيما » .

وليست دائرة المعارف ، وغيرها من كتب المستشرقين وحدها التى تحاول إثارة هذه الشبهات ، ولكن تناثرت فى كتب المسلمين إشارات إلى هـذا الموضوع . فقد ذكر ابن كثير القرشى .

(ومن زعم من متأخرى الفقهاء كالقاضى أبى الوليد الباجى ومن تابعه انه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية فى صحيح البخارى . ثم أخذ فكتب . وهذه محمولة على الرواية الأخرى : (ثم أمر فكتب) ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجى وتبرأوا منه ، وأنشدوا فى ذلك أقوالا وخطبوا به فى محافلهم . وإنما أراد الرجل — أعنى الباجى — فيما يظهر أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا انه كان يحسن الكتابة كما قال رسول الله

اخبارا عن الدجال (مكتوب بين عينيه كافر) . وفى رواية (ك ف ر يقرؤها كل مؤمن) . وما أورده بعضهم من الحديث انه لم يمت صلى الله عليه وسلم حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له .

ولا يعنينا أن نتقصى أنباء هذه الفتنة التى يصفها ابن كثير بأنها طارت فى المشرق والمغرب ، تقول ان النبى كان يعرف القراءة والكتابة ، وهل كان هذا فى صغره أم عرفه وهو كبير السن ، لا يعنينا هذا ، فهو إلى مباحث السيرة النبوية أقرب ، وإن لم يتعرض له أحد من الباحثين المحدثين إلى اليوم .. إلا أن ما يعنينا أن نجيب عليه هنا هو :

هل نزل القرآن وقام النبى بكتابته أم لا ؟

والجواب على هذا بالسلب . فليست هناك نصوص غامضة أو واضحة فى أى كتاب من كتب التاريخ القديم أو الحديث تقول ان النبى كان يكتب مايوحى إليه ، والقول الفصل فى هذا هو ماورد فى القرآن الكريم نفسه فقد أكد فى مواضع كثيرة ، ان القرآن أنزل على قلب رسول الله ، وانه كلف بحفظه وبأن يحفظه المسلمون .. لا أن يكتبوه .

« فإنّهُ نزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بإذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يدَيْهِ » البقرة .

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِين » الشعراء

« الذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّى » الأعراف .

« هُوَ الذى بَعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عليهمْ آياتِهِ » الجمعة .

و إنا نلاحظ فى كلمة الأُمِّيِّين هنا ، وهى جمع أُمى ، انها تعنى جماعة قريش أو العرب .. ولو أن المراد — كما يقول المستشرقون — بكلمة أُمى انه مبعوث إلى الأمة ، فماذا يراد بكلمة أُمِّيِّين .. المفهوم أن المبعوث يكون واحدا أما أن يبعث أُمى « لا أُمِّيِّين » بهذا المعنى الملتوى فأمر غير مفهوم .

لا نحسب أن المعنى يستقيم كما يقول هؤلاء المستشرقون ، و إن كان هذا لا يمنعنا من القول بأن كلمة أُمى من الاصطلاحات القرآنية ، التى لا نفهم دلالتها اللغوية فهما دقيقا الآن ...

■ ■ ■

و إذن فلم يكن النبى يكتب ما يوحى إليه ، ولا نعلم على وجه دقيق كيف كان يكتب القرآن فى العهد المكى .

ولكنا نذكر فى الرواية الشائعة التى تقص عن إسلام عمر بن الخطاب أنه وجد فى يد أخته فاطمة (صحيفة) فيها آيات من القرآن . وعلى الرغم من أن هناك روايات أخرى تهمل قصة فاطمة وما حدث بينها و بين عمر إلا أن من الممكن أن نعتمد عليها فى أن نعلم أنه كانت هناك صحف تكتب فيها أجزاء من القرآن سواء كانت هذه الصحف عند فاطمة أخت عمر أو عند غيرها ..

وكلمة (صحيفة) لا تدل على الورق الذى نعرفه اليوم ولـكنها على كل حال شىء مبسوط خفيف الحمل يكتب عليه فى سهولة . وأ كاد أشك فى أن العرب لم يعرفوا وسيلة للتدوين عليها إلا قطع الأحجار والعظام وغيرها مما يروى أن القرآن كان يكتب عليـه فى حياة النبى .. إذ يكفى أن نتصور مثلا أن عشر آيات نزلت على النبى وأن زيد بن ثابت جالس بجواره يكتب .. ففى كم من الأحجار أو أجزاء النخيل يستطيع أن يدون هذه الآيات ، انه ليحتاج إلى قدر غير قليـل . فإذا سرنا مع الرأى القائل بأن القرآن الذى نزل فى مكة دون كله ، وهو نحو ثلثى المصحف وتصورنا كتابته على هذه الأدوات الخشنة فى حجمها وملمسها فعلينا أن نتصور أن ثلثى القرآن الذى كتب فى مكة كان مصحفا يحتاج إلى عشرين بعيرا لحمله ... ولم نعلم من أنباء الهجرة أن قافلة من الأحجار فرت قبل النبى أو مع النبى ومعها هذا الحمل الغريب ..

وإذن فنحن نفرض فرضا آخر ، وهو أن العرب كانوا يعرفون (الصحف) ولنعرفها بأنها أداة مبسوطة خفيفة الحمل يكتبون عليهـا .. وليس غريبا أن يعرفوا هـذه الصحف فقد كان اليهود يقيمون غير بعيد من مكة وكانت لهم كتب كثيرة يتدارسونها ، وكانت مكة كما ذكر الأزرقى طريق تجارة تدون حساباتها ووثائقها ، وأكثر من هذا انا نعلم أن « صحيفة » كتبت فى مكة ، كتبتها قريش لإعلان الحصار الاقتصادى والاجتماعى على بيت هاشم . وأن

كاتب الصحيفة كان منصور بن عكرمة ، وقد علقت الصحيفة فى الكعبة .
ولما آذنت مدة الحصار بانقضاء ، وقام على نقضها أفراد من قريش وقف واحد منهم فى قومه (هو زهير بن أمية) وقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب و بنو هاشم هلكى لا يبيعون ولا يبتاع منهم . والله لا أقعد حتى (تشق) هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .. وقام واحد إلى الصحيفة « ليشقها » فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » .

ولا نحسب أن من الجائز — إذا كانت الصحيفة حجرا أو عظمة أن من الممكن شقها ، ويؤكد لنا علماء الحيوان أن الأرضة لا تحب أكل الأحجار والعظام و إن كانت تستطيب صحف النبات والنسيج وغيرها !!

ولقد وردت فى القرآن كلمة صحيفة ، مثل قوله تعالى : « فى صُحُفٍ مُكَرَّمَة ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَة » .

وثمت كلمة أخرى وردت فى القرآن عما يكتب عليه ، وهى القرطاس :
قال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قَالُوا ما أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَىء . قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الذى جاءَ به مُوسى نُوراً وَهُدًى للنَّاسِ . تَجْعلُونه قَرَاطِيسَ تبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيرا .. »

وقال : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عليكَ كِتَاباً فى قِرطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بأَيْدِيهِمْ لقَالَ الذينَ كفَرُوا إنْ هَذَا إلّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

والقرطاس لا يخرج فى معناه عن الصحيفة . ويفهم من هـذه الآيات أن القرآن لم ينزل فى قرطاس ، وأنه لم يجعل فى قراطيس كما كان شأن التوراة التى فى يد اليهود .

وهذه النصوص تدل على أن القرآن لم يكن يكتب على سبيل الحصر فى صحف وقراطيس : « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . . »

أى أن الحفظ كان أساس العلم بالقرآن وليست التلاوة من صحف مسطورة .

وأما ما كان فى المدينة ، فقد وجدت الصحف وعرفت ، وكتب صلح الحديبية على واحدة منها ، وكثرت رسائل النبى إلى الملوك والأمراء ، ويمكن القول بأن التدوين الفعلى للقرآن قد بدأ فى هذه الفترة . .

ونكتفى بهذا القدر الآن ، وسنفصل بحث هذه النقطة عندما ننتقل إلى تدوين المصحف والمراحل التى مرّ عليها .

■ ■ ■

ولا بد لنا هنا من أن نسأل سؤالا آخر :

هل كان الصحابة جميعاً يحفظون القرآن كله ؟

المرجح أنهم لم يكونوا يحفظون كل القرآن . وسنرى حينما نتحدث عن

جمع زيد بن ثابت للقرآن أنه وجد مشقة كبيرة فى العثور على رجل يحفظ القرآن كله . .

وورد فى فجر الإسلام للاستاذ أحمد أمين :

« ولم يكن شائعاً فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد . إنما كانوا يحفظون السورة أو جملة آيات ويتفهمون معانيها فإذا حذقوا ذلك انتقلوا إلى غيرها . فكان حفظ القرآن موزّعاً على الصحابة .

قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين يقرأون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها ، حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . وقال أنس كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فى أعيننا (رواه أحمد فى مسنده) . وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، ذلك أنه إنما كان يحفظ ولا ينتقل من آية إلى آية حتى يفهم » .

إلا أن النبى كان شديد الحرص على أن يعلم المسلمين القرآن فقد خصص سيدة لتعليم النساء القرآن ، كما ندب بعض الصحابة لتعليم الرجال القرآن[1] .

وقد حض رسول الله على تعليم القرآن فى أحاديث كثيرة فقال : « إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » . رواه الترمذى والحاكم

---

(١) راجع كتابنا عن محمد الجزء الثانى .

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي : « إن أصغر البيوت بيت ليس فيه شيء من كتاب الله » .

وعن أبي أمامة الباهلي : « اقرأوا القرآن فانه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » رواه مسلم .

وعن سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله قال : « من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا . فما ظنكم بالذي عمل به » .

وعن عبد الله بن عمر : « من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه . لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ، ولا يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله » رواه الحاكم .

وعن أنس أن رسول الله قال : « إن لله أهلين من الناس . قالوا : مَن هم يارسول الله ؟ قال : أهل القرآن هم أهله وخاصته » رواه النسائي .

وعن أبي ذر أن النبي قال له : « يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أولم يعمل خير من أن تصلي مائة ركعة » .

وأخرج الترمذي عن عليّ بن أبي طالب قال : « أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أما انها ستكون فتنة . قلت : فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم

ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله تعالى . ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى ، وهوحبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء . ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ » . من قال به صدق . ومن عمل به أجر . ومن حكم به عدل . ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم[1] » .

هذا طرف من أحاديث رسول الله داعياً إلى القرآن غير ما ورد فى القرآن نفسه من دعوة للناس إلى تلاوته وحفظه والتأمل فى معانيه .

(١) جمع هذه الأحاديث فضيلة الشيخ الدجوى فى مجلة نور الاسلام .

— ٧ —

لغة القرآن

لغة القرآن ؟ ! وهل يمكن أن يقال فى هذا الباب إلا أن لغته هى العربية الفصحى .. هذا ما يقوله المصحف أول مايقع عليه النظر و يتحرك بآياته اللسان

وعلى الرغم من أن هـذه الحقيقة تدرك بالبداهة ، إلا أن باب « لغة القرآن » باب فسيح متسع لـكثير من القول ، بل لـكثير من الجدال . فلقد اختلف العلماء فى لغة القرآن ، وما زالوا مختلفين . ولا يمكن أن يدلى اليوم ولا بعد اليوم بالقول الفصل فى لغة القرآن ، وكل ما يمكن هو عرض طائفة من الآراء المحدثة والآراء القديمة ، والإشارة إلى ما فى هذا الرأى من احتمال الصواب ، وما فى ذاك من احتمال الخطأ ..

وقبل كل شىء .. ما معنى كلمة قرآن هذه التى ينطلق بها اللسان اليوم فى يسر وسهولة ، ومن أين جاءت ، وما ذا فهم القدماء منها ، وماذا يمكن أن نفهم نحن منها اليوم ! !

تحصى مذكرات الأزهر[1] خمسة أقوال فى لفظ « القران » هى :

أولا — ما ذهب إليه الشافعى أن لفظ القرآن المعرف بأل ليس مهموزا ولا مشتقا بل وضع علما على الكلام المنزل على النبى المرسل صلى الله عليه وسلم .

ثانيا — ما نقل عن الأشعرى وأقوام انه مشتق من قرنت الشىء بالشىء إذا ضممته اليه . ثم جعل علما على اللفظ المنزل . وسمى بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض .

ثالثاً — ذهب القراء إلى أنه مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا . وجعل علما على اللفظ المنزل لذلك . وهو على هذين غير مهموز أيضاً ، كالذى قبلهما ونونه أصلية .

رابعاً — قال الزجاج هو وصف على وزن فعلان مهموز مشتق من القرء بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء فى الحوض اذا جمعته . وسمى الكلام المنزل على النبى المرسل به قرآناً لأنه جمع السور أو جمع ثمرات الكتب السابقة .

خامساً — ما ذهب إليه اللحيانى وجماعة من أنه مصدر مهموز بوزن الغفران سمى به المقروء من تسمية المفعول بالمصدر

ويختار صاحب المذكرات القول الرابع والقول الخامس .

■■■

(١) سبقت الاشارة إليها فى المقدمة

وينقل كتاب الإتقان عن الجاحظ أن الله سمى كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم .. سمى جملته قرآنا كما سمى العرب جملة كلامهم ديوانا . وسمى بعضه سورة كقصيدة . وسمى بعض السورة آية كالبيت . وسمى آخر السورة فاصلة كقافية .

كما أورد كتاب الإتقان الأقوال المروية فى المذكرة الأزهرية .

ويورد الإتقان رواية هامة عن كلمة مصحف فيقول ، حكى المظفرى فى تاريخه قال لما جمع أبو بكر القرآن قال سموه . فقال بعضهم سموه انجيلا ، فكرهوه وقال بعضهم سموه السفر ، فكرهوه ، فقال ابن مسعود رأيت بالحبشة كتابا يدعونه المصحف فسموه به ..

كما يذكر أن كتب الأنبياء السابقين أسميت فى المصحف بأسماء القرآن فسميت التوراة الفرقان فى قوله « وإذْ آتَيْنَا مُوسى الكِتَابَ والفُرْقَانَ » وسمى الزبور قرآننا فى قوله « خفف على داود القرآن » .

وتبدأ دائرة المعارف الإسلامية بحثها فى مادة قرآن ، بذكر اختلاف المسلمين فى نطق واشتقاق ومعنى كلمة قرآن .. فبعضهم يقول القرآن من غير همز ، ويذهب إلى أنها كلمة وضعت كما وضعت كلمة توراة وإنجيل . وهو كما ترى قول الشافعى الذى سبق ذكره . ثم تمضى الدائرة فى ذكر بقية الأقوال الخمسة . وتضيف إليها قولا سادسا وهو ما ذهب إليه شغالى (Schwally)

ولها وزن (Wellhausen) من أن الكلمة عبريه أو سريانية تكتب هكذا (Kiryani - Keryani) ومعناها ما يقرأ ..

وتميل دائرة المعارف مع هذين العالمين ، إلى رأيهما الذى يقول بأن « قرأ » بمعنى تلا ليست كلمة عربية النسب ولكنها دخيلة على اللغة .

■■■

ولابد لفهم المعنى الدقيق لكلمة قرآن من أن نأخذ المعنى من استعمال المصحف لها .

ففى سورة القيامة : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » .

ظاهر المعنى هنا التلاوة والقراءة .. أى أن القرآن هو كلام الله الذى يردده الناس .

ويؤيد هذا المعنى ماورد فى سورة الإسراء : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا .... (ثم) .... أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » .

إلا أن هذه الآيات تضيف توضيحا جديدا ، وهو أن القرآن ، كلام الله الذى يردده الناس ، ولا يشترط أن تكون التلاوة فى كتاب مسطور .

وفى سورة البقرة : « شَهْرُ رَمَضانَ الذى أُنْزِلَ فيهِ القُرْآنُ هُدًى للنَّاسِ » .

وفى سورة الحجر : «ولَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعًا مِنَ المَثانِي والقُرْآنَ العَظِيمَ» .

وفى سورة طه : « ما أَنْزَلْنا عليكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى » .

وفى سورة النمل : « وإنَّكَ لَتُلَقَّى القُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » .

وفى سورة الأحقاف : « وإذْ صَرَفْنا إليكَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ » .

وفى سورة الواقعة : « إنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فى كِتابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إلَّا المُطَهَّرُون » .

وفى سورة الحشر : « لَوْ أَنْزَلْنا هٰذا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعًا مُتَصَدِّعًا . . »

وفى سورة الدهر : « إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ القُرْآنَ تَنْزِيلًا »

وفى هذه الآيات جميعاً ، وفى كثير غيرها مما يجرى استعمال اللفظ فيها على هذا النحو ، تدل كلمة قرآن على أنه كلام الله الذى نزل به الوحى على نبيه محمد عليه السلام .

إلا أن هـذه الآيات الـكثيرة التى اقترنت فيها كلـمة القرآن بفعل قرأ تضعف قليلا من قول الشافعى وقول المستشرقين الذين يذهبون إلى أن الـكلمة وضعت من غير اشتقاق مثل كلمة انجيل وتوراة . . ومثال هذا غير ما ذكرنا : « وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » الأعراف . « وإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُورًا » الاسراء . و « فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ » المزمل .

ولا بد لنا من أن ننبه إلى أنه ليس مستحيلا ، ولا غريباً أن تدخل فى القرآن ألفاظ من لغات أخرى . وإذا اتسع لنا مجال البحث فسنعرض لما فى القرآن من ألفاظ أعجمية جاءته من اللسانين العبرى والسريانى ، ومن اللسان الحبشى وغيره . وعلى هذا ، فإن قول شفالى وصاحبه من أن كلمة قرآن عبرية أو سريانية لا يرفض على إطلاقه وإنما يمكن أن يوضع فى الميزان كما توضع بقية الأقوال .

■ ■ ■

ولا يسمى هذا الـكلام الذى أنزله الوحى على النبى محمد قرآناً فقط . ولـكن وردت له أسماء أخرى أكثرها استعمالا فى المصحف « الـكتاب » . وقد وردت الـكلمة مرادفة لـكلمة قرآن فى كثير من المواطن ، ولا تختلف فى استعمالها عن تلك . . ومثال هذا : « وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ

رَبِّكَ » الكهف . و « أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » الأنعام . و « كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » الأعراف .

ووردت فى القرآن جملة « أهل الكتاب » أى القوم الذين يدينون بكتاب نزل به الوحى .

وسمى القرآن فرقاناً . وفيه سورة تحمل اسم « الفرقان » وقد رأت دائرة المعارف كلمة فرقان مجهولة الأصل . ولا نحسب أنها كذلك فهى مصدر من فعل فرق ، والفرقان هو ما يفصل بين الشيئين . وسمى به القرآن لأنه يفصل بين الحق والباطل .

وهكذا استعملت الكلمة : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا . . »

ولا خلاف فى استعمال اللفظ هنا عما استعمل فيه لفظ قرآن أو كتاب . وإن كانت الكلمة فى هذه الآية لم تستعمل الاستعمال الذى يوضح تماماً معناها اللغوى وهو الفصل والتفريق بين شيئين . .

وسمى القرآن أيضاً الذكر . . ففى سورة القمر : « أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » . وفى سورة الأنبياء : « أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً . قُلْ هَاتُوا

بُرْهَانَكُمْ ، هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِىَ وَذِكْرُ من قَبْلى . . » وفى سورة الحجر : « وقالوا يَاأَيُّهَا الذى نُزِّلَ عليهِ الذِّكْرُ إنكَ لمجنُونٌ » .

وقد اقترنت كلمة الذكر مع كلمة فرقان فى نفس السورة : « وَلَقَدْ آتينَا مُوسى وهَارُونَ الفُرْقَانَ وضياءً وذِكْراً لِلْمُتَّقين » .

وكما سمى الأقوام الذين نزلت عليهم كتب من السماء « أهل الكتاب » كذلك سموا « أهل الذكر » .

ووردت فى القرآن أيضا كلمة حكمة . ففى سورة البقرة « رَبَّنَا وابْعَثْ فيهمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتلو عليهمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُم الكِتَابَ والحِكْمَةَ ويُزَكِّيهم إنكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكِيم » و « كماأرْسَلْنَا فيكُمْ رَسُولًامِنكُمْ يَتْلُو عليكُمْ آيَاتِنَاويُزَكِّيكمويُعَلِّمُكم الكِتَابَ والحِكْمَةَ ، ويُعَلِّمُكمْ مالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » وفى نفس السورة أيضا « واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عليكمْ وَما أنْزَلَ عليكُمْ مِنَ الكِتَابِ والحِكْمَةَ » . وفى سورة آل عمران : « لقد مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنينَ إذْ بَعَثَ فيهمْ رَسُولًا مِنْ أنْفُسِهمْ يَتْلُو عليهمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهمْ ويُعَلِّمُهُم الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإنْ كانوا مِنْ قبلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبين » وفى سورة النساء « وأنْزَلَ اللهُ عليكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ مالَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ » وفى سورة الجمعة « هُوَ الذى بَعَثَ فى الأُمِّيِّينَ

رَسُولًا مِنْهُمْ يَتلُو عليهمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِين » .

وفى هذه الآيات جميعا نرى لفظ الحكمة مقترنا بلفظ الكتاب معطوفا عليه . ولا سبيل إلى أن نذهب إلى ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أنها مرادفة أيضا لكلمة قرآن . فقد ذكر الشافعى أن المقصود بها سنة النبى . والمتفق عليه بين علماء المسلمين أن كثيرا من سنن النبى نزل بها الوحى ، وعلى هذا الوجه يمكن أن يفهم قوله تعالى : « وأَنْزَلَ اللهُ عليكَ الكِتابَ والحِكْمَةَ » .

وقد ذكر الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا فى محاضراته فى الفلسفة الإسلامية أن من الممكن أن تكون كلمة حكمة فى اللغة العربية مرادفة لكلمة فلسفة اليونانية ، وتتبع هذه الكلمة يهدينا إلى أصل التفكير الممتاز عند العرب . وقد وجدت الكلمة فى الجاهلية والشواهد عليها كثيرة جدا .. ومعنى الحكمة فى القرآن فى أكثر الأحيان سنة النبى . ولا خلاف فى تقرير هذا المعنى . واستعملت الكلمة أيضا فى القرآن بالمعنى اللغوى الذى كان معروفا عند العرب ، وقال اللغويون الحكمة والحكم من مادة واحدة . ويرى بعض المستشرقين أن الكلمة عبرية ومعناها فى هذا اللسان : القضاء ، أى الحكم أيضا . والحكمة فى معناها العام تدل على السداد وإتقان الرأى والفعل

« ومَنْ يُؤْتَى الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيرا .. »

وعبر عن القرآن أيضا بأنه آيات الله . وكلمة آية فى الرأى الراجح عبرية لأنها تشبه الكلمة العبرية ot . ومن معانيها المعجزة .. وكذلك كلمة سورة تشبه كلمة Sura وهى بنفس المعنى[١] .

■■■

هذا ما يتصل ببعض الألفاظ المشهورة فى القرآن .. ولننتقل بعد هذا إلى لغة القرآن . ويظهر أن الحديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » كان سببا فى نشوء هذا العلم من علوم القرآن ، ونعنى به لغة القرآن . وقد أوردنا فى مقدمة هذا الكتاب أسماء ستة كتب أوردها فهرست ابن النديم عرضت له بالبحث والتفصيل ..

وطريقتنا فى تناول هذا الموضوع هى أن نورد ونلخص أهم الدراسات التى عرضت له ، ثم نذكر ما يعن لنا فيه .

وأحدث هذه الدراسات ، وأقومها إلى الآن ، ماذكره الأستاذ الدكتور طه حسين فى كتابه الأدب الجاهلى . فقد أحاط فى موضوعه بآراء المحدثين والقدماء من المسلمين ، كما أحاط بآراء المستشرقين .. قال[٢] :

---

(١) راجع تعليقات سيل فى مصحفه .

(٢) ص ٢٩ من الأدب الجاهلى وما بعدها .

أثبت البحث الحديث خلافا جوهريا بين اللغة التى كان يصطنعها الناس فى جنوب البلاد العربية ، واللغة التى كانوا يصطنعونها فى شمال هذه البلاد . ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف فى اللفظ وفى قواعد النحو والتصريف أيضا . وإذن فلابد من حل لهذه المسألة .

إذا كان أبناء اسماعيل قد تعلموا العربية من أولئك العرب الذين نسميهم العاربة ، فكيف بعد ما بين اللغة التى كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التى كان يصطنعها العرب المستعربة ، حتى استطاع أبو عمرو بن العلاء أن يقول إنهما لغتان متمايزتان ، واستطاع العلماء المحدثون أن يثبتوا هذا التمايز بالأدلة التى لا تقبل شكا ولا جدالا .

الحق ان القدماء والمحدثين مضطربون اضطرابا شديدا فى تحديد ماينبغى أن يفهم من لفظ العرب . وفى تحديد ماينبغى أن يفهم من لفظ اللغة العربية. وهذا الاضطراب ليس من شأنه أن يعين على التحقيق العلمى ولا أن يمكننا من أن نضع أمامنا — فى دقة وجلاء — المسألة التى يجب أن نعنى بها .

فأما القدماء فقد كانوا يفهمون من لفظ العرب سكان هذه البلاد العربية ، وإن لم يتفقوا فى تحديدها على مايحدده الجغرافيون الحديثون اليوم . ولم يكونوا يفرقون بين سكان هذه البلاد فى التسمية وإنما كان أهل الجنوب عربا وكان أهل الشمال عربا . ولم يكن ذلك شأن القدماء من العرب وحدهم

وإنما كان شأن القدماء من اليونان والرومان . فأهـل اليمن عرب والأنباط عرب عند أولئك وهؤلاء .

وأما المحدثون ففريق منهم يطلقون لفظ العرب كما كان يطلقه القدماء على سكان هـذا الطرف من أطراف آسيا . ولـكنّ عند فريق منهم ميلا ظاهرا إلى أن يتجاوزوا هذا الطرف قليلا أو كثيرا . فهم لا يكتفون بعربية اليمنيين والحجازيين والنجـديين ، ولـكنهم يريدون أن يكون النبط عربا وأن يكون البابليون فى عصرهم الأول عربا . وهم كما ترى ممدون لفظ العرب حتى يتجاوزوا به البلاد العربية الطبيعية . وهم يرتبون على هذا نتائج غريبة : فحضارة النبط حضارة عربية ، وحضارة البابليين وتشريعهم من عهد حمورابى حضارة عربية وتشريع عربى ، واللغة العربية تتسع وتضيق بمقدار ما تتسع البلاد العربية وتضيق ، وبمقدار ما يتسع الجنس العربى نفسه ويضيق .

ثم يمضى الأستاذ فى ذكر الفروق بين لغة عرب الجنوب وعرب الشمال ، أو كما يقول لغات الجنوب ولغة الشمال . ويورد بعض النصوص التى كشفها الأستاذ جويدى من اللغة الحميرية وكيف أنها تختلف اختلافات كثيرة جداً عن اللغة الحجازية القرشية التى نعرفها . ومثال هـذا النص الذى يقول : « وهبم واخهو بنو كلبت هقنيو إل مقه ذهرن ذن فرندن حجن وقههمو بمسألهو لو فيهمو وسعد همو نعمتم » .

ومعناها « وهاب (اسم رجل) وأخوه بنو كلب اعطوا المقه (اسم إلاه فى هران) هذا اللوح لأنه أجابهم عن سؤالهم وسلمهم وساعدهم بنعمته » .

ثم يتدرج من هذا البحث الطويل إلى قوله :

إن القرآن الذى تلى بلغة واحدة ولهجة واحدة هى لغة قريش ولهجتها. لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تباينا كثيرا ، جد القراء والعلماء المتأخرون فى ضبطه وتحقيقه ، وأقاموا له علما أو علوما خاصة . ولسنا نشير هنا إلى هذه القراءات التى تختلف فيما بينها اختلافا كثيرا فى ضبط الحركات سواء أكانت حركات بنية أو حركات إعراب . لسنا نشير إلى اختلاف القراء فى نصب (الطير) فى الآية « يا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ » أو رفعها . ولا إلى اختلافهم فى ضم الفاء أو فتحها فى الآية « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » .. الخ ..

إنما نشير إلى اختلاف آخر فى القراءات يقبله العقل ويسيغه النقل وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التى لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبى وعشيرته من قريش . فقرأته كما كانت تتكلم . فأمالت حيث لم تكن تميل ، وقصرت حيث لم تكن تقصر ، وسكنت حيث لم تكن تسكن ، وأدغمت أو أخفت أو نقلت حيث لم تكن تدغم ولا تخفى ولا تنقل .

وهنا وقفة لابد منها . ذلك أن قوما من رجال الدين فهموا أن هذه القراءات السبع متواترة عن النبى نزل بها جبريل على قلبه ، فمنكرها كافر فى غير شك ولا ريبة . ولم يوفقوا إلى دليل يستدلوا به على ما يقولون سوى ما روى فى الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام « أُنْزِلَ القرآن على سبعة أحرف » .

والحق أن ليست هذه القراءات السبع من الوحى فى قليل ولا كثير ، وليس منكرها كافرا ولا فاسقا ولا مغتمزا فى دينه ، و إنما هى قراءات مصدرها اللهجات واختلافها . للناس أن يجادلوا فيها وأن ينكروا بعضها و يقبلوا بعضها. وقد جادلوا فيها بالفعل وتماروا وخطأ فيها بعضهم بعضا . ولم نعرف أن أحداً من المسلمين كفر أحداً لشىء من هذا .

وليست هذه القراءات بالأحرف السبعة التى أنزل عليها القرآن ، و إنما هى شىء وهذه الأحرف شىء آخر .

فالأحرف جمع حرف ، والحرف : اللغة . فمعنى أنزل القرآن على سبعة أحرف انه أنزل على سبع لغات مختلفة فى لفظها ومادتها ، يفسر ذلك قول ابن مسعود : إنما هو كقولك هلم وتعال وأقبل . و يفسر ذلك قول أنس فى الآية : « إنّ نَاشِئَةَ الليلِ هىَ أَشَدُّ وَطْـأً وأصوبُ قِيلا » أصوب وأقوم وأهدى واحد . و يفسر ذلك قراءة ابن مسعود (هل ينظرون إلا زقية واحدة) مكان « هَلْ ينظرُونَ إلّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » .

الأحرف إذن اللغات التى تختلف فيما بينها لفظا ومادة. فأما هذه القراءات التى تختلف فى القصر والمد وفى الحركة والسكون وفى النقل والإثبات وفى حركات الإعراب ، فليست من الأحرف فى شىء . لأنها اختلاف فى الصورة والشكل لا فى المادة واللفظ . وقد اتفق المسلمون على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف أى على سبع لغات مختلفة فى ألفاظها ومادتها . واتفق المسلمون على أن أصحاب النبى تماروا فى هـذه الأحرف والنبى بين أظهرهم ، فنهاهم عن ذلك وألح فى نهيهم . فلما توفى النبى استمر أصحابه يقرأون القرآن على هـذه الأحرف السبعة كلٌّ يقرأ على الحرف الذى سمعه من النبى . فاشتد الخلاف والمراء فى ذلك حتى كادت الفتن تقع بين الناس ولاسيما فى جيوش المسلمين التى كانت تغزو وترابط فى الثغور بعيدة عن مهبط الوحى ومستقر الخلافة . فرفع الأمر إلى عثمان فجزع له وأشفق أن يقع بين المسلمين مثل ما وقع بين النصارى من الاختلاف فى نص القرآن كما اختلفوا فى نص الإنجيل ، فجمع لهم المصحف الإمام وأذاعه فى الأمصار وأمر بمـا عداه من المصاحف فمحى محواً .

وعلى هـذا محيت من الأحرف السبعة ستة أحرف ولم يبق إلا حرف واحد هو هـذا الذى نقرؤه فى مصحف عثمان ، وهو حرف قريش ، وهو الحرف الذى اختلفت لهجات القراء فيـه : فمد بعضهم وقصر بعضهم ، وفخم فريق ، ورقق فريق ، ونقلت طائفة وأثبتت طائفة .

ولقد حاول بعض القراء والرواة أن يعينوا هذه اللغات التى أنزل عليها القرآن فقالوا : خمس من عجز هوازن واثنتان لقريش وخزاعة . ولكن الثقات لم يقبلوا هذا النحو من الكلام وأعرضوا عنه إعراضا .

ثم أورد الأستاذ ما ورد فى الجزء الأول من تفسير ابن جرير الطبرى لتأييد رأيه .

■■■

وكلام الطبرى فى هذا الموضوع هو الحلقة الثانية من سلسلة بحثنا فى موضوع لغة القرآن لأنه من أقدم البحوث الموجودة بين أيدينا ، وقد عرض فى تفصيل واستنارة لما نحن بصدده .

قال ابن جرير ما ملخصه : أن قوما من العلماء ذهبوا إلى أن الأحرف السبعة هى سبعة معان جملتها : الأمر والنهى والوعد والوعيد والجدل والقصص والمثل . ولكنه يعارض هذا ويقول إن الأحرف السبعة هى سبع لغات من لغات أحياء من قبائل العرب مختلفة الألسن ، وذكر أن أصحاب رسول الله تماروا فى تلاوة بعض القرآن فاختلفوا فى قراءته دون تأويله « وأنكر بعض قراءة بعض مع دعوى كل قارئ منهم قراءة منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه ما قرأ بالصفة التى قرأ . ثم احتكموا إلى رسول الله ، فكان من حكم رسول الله بينهم أن صوب قراءة كل قارئ منهم على خلاف قراءة

أصحابه الذين نازعوه فيها . وأمر كل امرئ منهم أن يقرأ كما علم حتى خالط قلب بعضهم الشك فى الإسلام لما رأى من تصويب رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءة كل قارئ منهم على اختلافها ، ثم جلاه الله عنه ببيان رسول الله له ان القرآن أنزل على سبعة أحرف » .

وعرض الطبرى لنقطة هامة جـدا وهى هل نزل القرآن بلغة واحدة أم نزل بسبع لغات مع اتفاق المعنى ، واختـار أنه نزل بالسبعة المذكورة التى يوضحها المثال فى لفظ هلم ، يقال بدله أقبل وتعال ، والى وقصدى ونحوى وقربى ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق وتتفق فيه المعانى و إن اختلفت بالبيان به الألسن .

وعرض لنقطة أخرى لا تقل أهمية ، وهى الرد على سؤال المستفسرين ، فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة ، وقد أقرأهن رسول الله أصحابه ، وأمر بالقراءة بهن ، وأنزلهن الله من عنـده على نبيه صلى الله عليه وسلم .. أنسخت فرفعت ؟ فمـا الدلالة على نسخها ورفعها ؟ أم نسيتهن الأمة ؟ فذلك تضييع ما قد أمروا بحفظه أم ما القصة فى ذلك !! .

وأجاب ابن جرير على هذه الأسئلة المحرجة جوابا بارعا فقال :

لم تنسخ الأحرف الستة فترفع ، ولا ضيعتها الأمة وهى مأمورة بحفظها ، ولـكن الأمة أمرت بحفظ القرآن وخيرت فى قراءته وحفظه بأى تلك

الأحرف السبعة شاءت ، وضرب لها مثلا فى الفقه : إذا حنث موسر فى يمين فله أن يختار كفارة من ثلاث كفارات إما بعتق أو إطعام أو كسوة . فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته وخيرت فى قراءته بأى الأحرف السبعة شاءت . قرأت . ولعلة من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد ، قراءته بحرف واحد ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية . ولم تحضر قراءته بجميع حروفه على قارئه بما أذن له فى قراءته به .. ثم أورد الطبرى أنباء ما حدث فى أيام أبى بكر وعمر وعثمان مما سنفصله عند حديثنا عن جمع المصحف .

■ ■ ■

هذا رأى ابن جرير الطبرى ، وهو يذهب أيضا إلى أن الأحرف السبعة هى اللغات السبعة ..

وبحث آخر للسيوطى فى الإتقان ، لابد لنا من تلخيصه ..

بدأ السيوطى فأكد صحة الحديث بشهادة واحد وعشرين صحابيا ذكروه . ثم أراد عثمان بن عفان أن يستوثق من صحته فطلب من المسلمين وهم مجتمعون فى المسجد أن يقف منهم من سمع هذا الحديث فوقف من فى المسجد كلهم فقال : وأنا أشهد معهم ..

وانتقل السيوطى إلى بحث الأقوال التى قيلت فى هذا الحديث ، فإذا هى

نحو أربعين قولا .. وبدأ فأضاف اشكالا إلى الاشكالات الموجودة فى هذا الموضوع فقال : إنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد ، بل المراد التيسير والتسهيل والسعة . ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة فى الآحاد كما يطلق السبعون فى العشرات ، ولا يراد العدد المعين . ثم أخذ يسرد الأقوال فمنها أنها القراءات السبعة ، ولكنه رد هذا القول بأن فى القرآن آيات تقرأ على أكثر من سبعة أوجه ومنها ما يقرأ على أقل . ومنها ما تغيرت حركته ولم يتغير معناه ولا صورته (مادة اللفظ) . ومنها ما ذكره الطبرى من اختلاف الألفاظ واتفاق المعانى . وذكر الطحاوى أن ذلك كان رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الخط . ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ . وضرب مثلا لهذا أن عبد الله بن مسعود كان يعلم رجلا القرآن ، فتلا عليه (طعام الأثيم) ، فقال الرجل طعام اليتيم فردها عليه ، فلم يستقم لسانه بها . فقال أتستطيع أن تقول طعام الفاجر .. قال نعم . قال فافعل !!

وقول آخر ذهب إليه كثير من العلماء مثل أبى عبيد وثعلب والزهرى ، وهو أن الأحرف السبعة هى لغات سبعة ، فلما قيل لهم ان لغات العرب أكثر من سبعة أجابوا أن المراد هو أفصحها .

ورويت عن ابن عباس الرواية التى أوردها كتاب الأدب الجاهلى من تعيين القبائل السبعة التى كانت أحرف القرآن بلسانها .

إلا أن ابن قتيبة يرفض أسماء هذه القبائل ، ويقول إنما هى بطون من قريش وحدها بدليل قوله تعالى : «وما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إلا بِلِسانِ قَوْمِهِ»

ولأبى عبيد رأى قيم وهو أن فى القرآن سبع لغات متفرقة فيه ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هـذيل ، وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن وغيرهم . أى أن فى القرآن ألفاظا وجملا مما كانت تعرف هذه القبيلة وهذه القبيلة .

ورأى آخر لا يقـل قيمة لأبى شامة ، وهو أن القرآن نزل بلغة قريش ثم أبيح للعرب أن يقرأوه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والاعراب . ولم يكلف أحد منهم الانتقال عن لغة إلى لغة أخرى للمشقة ولما كان فيهم من الحمية ولطلب تسهيل فهم المراد . وقيد البعض هذا النقل بما سمع عن النبى عليه السلام .

ومضى السيوطى يعرض طائفة أخرى من الأقوال لا أهمية لها ثم أنهى كلامه بقوله : وقد ظن كثير من العوام أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبعة وهو جهل قبيح .

■■■

وقبل أن نقول كلمتنا فى هذا الموضوع الذى كثر حوله الخلاف واشتد فيـه جدل القدماء نرجع — كعادتنا — إلى المصحف لنرى إذا كان من بين آياته ما يلقى ضوءا على الأحرف السبعة أم لا ...

نقرأ فى سورة فصّلت « كِتَابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُون » وفى نفس السورة « وَلَوْ جَعلناهُ قُرآناً أَعْجَمِياً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَأَعجمِيٌّ وعَرَبى ... »

ونستخلص من الآيتين أن القرآن نزل باللغة العربية لقومٍ يعلمون هذه اللغة . فهو لم ينزل بلغة يستغلق فهمها على العرب ، وإنما كانت آياته وسوَره واضحة مفهومة مفصلة لسامعيها .

وقد تكرر هذا المعنى فى أكثر من آية . ففى الزخرف « إِنّا جَعلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لعلكُمْ تَعْقِلُون » وفى سورة يوسف نفس الآية تقريبا . وفى سورة طه « وكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وصَرَّفْنَا فيه مِنَ الوَعِيدِ لَعلهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لهمْ ذِكْرا » وفى سورة الشعراء « بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين » وفى سورة الزُّمر « قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِى عِوَجٍ » وفى سورة الدُّخان « فإنما يَسَّرْنَاهُ بِلِسانِكَ لعلهُمْ يَتَذَكَّرُون » .

وتأكدت عربية القرآن فى سورة النمل « ولقدْ نَعلَمُ أَنَّهُمْ يقُولُونَ إنما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ. لِسانُ الذين يُلْحِدُونَ إليه أَعْجَمِيٌّ وهَذَا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين» وفى سورة الأحقاف « ومِنْ قبلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً ورَحْمَة . وهَذَا كِتَابٌ مُصَدقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِين ظَلَمُوا وبُشْرَى لِلْمُحْسِنِين » .

فهذه الآيات صريحة الدلالة على أن النبى كان يتلو القرآن باللسان العربى

المبين الذى يعلمه هو . وقد حرصت آيات كثيرة — كما رأيت — على تأكيد هذا المعنى ...

وهنا تخطر على الذهن أسئلة منها .

ما هى اللغة العربية التى كانت معروفة قبل ثلاثة عشر قرنا وما حدودها؟

هل كانت هناك لغة عربية مبينة ، وأخرى غير مبينة تجنبها القرآن ولم يعبر عن معانيه بها ؟

هل كان يعرف النبى لغة غير لغة قريش الحجازية المكية التى نراها فى القرآن ، وفيما صح من الأحاديث ؟

ماشأن هذه الآيات التى تتحدث عن اللسان العربى وعن اللسان الأعجمى وتؤكد أن لسان النبى عربى ، وأن القرآن نزل بلسان النبى ، لا بلسان أعجمى .. وما هذا اللسان أو هذه الألسنة الأعجمية التى يتحدث عنها القرآن ؟

والإجابات على هذه الأسئلة جميعا ليست سهلة ميسورة لنا ، أو لغيرنا . ذلك أن أبحاث العلماء القدماء والمحدثين لم تتفق على رأى قاطع فى كثير من هذه النقط يمكن الاطمئنان إليه .. ومع كل فسنحاول أن نبسط القول فى هذا الموضوع جملة واحدة ، وعسى أن نوفق إلى حل بعض المسائل التى سبقت الإشارة إليها .

ومهما اختلف الباحثون ، فقد أصبح واضحا جليا أن اللغة العربية فى

الجاهلية لم تكن لغة واحدة ، يتفق نطقها وصرفها ونحوها . فبعد أن كشف الأستاذ جويدى عن نصوص اللغة الحميرية ، وأثبت اختلافها التام عن اللغة القرشية التى نعرفها اليوم فى بنية ألفاظها وفى تركيب جملها ، لم يعد هناك شك فى أن جزيرة العرب كانت مستقر شعوب لا شعب واحد ، وكانت هذه الشعوب تنطق بلغات كثيرة قد تتفق بينها بعض الألفاظ كما تتفق اليوم بعض ألفاظ اللغة الفرنسية والانجليزية ، ولكن كل لغة منها قائمة بذاتها مستقلة استقلالا « لا شك فيه » ولم تكن الحميرية هى لغة الجنوب فقط ، وإنما كانت هناك لغات أخرى مثل السبئية والمعينية .. ولم يكن العلماء بعد الإسلام بغافلين عن هذه الحقيقة ، فقد تنبهوا ، ونبهوا إلى اختلاف ألسنة الجنوب عن لسان قريش . وقد عبر أبو عمر بن العلاء عن هذا المعنى فى وضوح تام .

وإذا كان هذا هو شأن لغات الجنوب حيث وجدت دول ثابتة ، وقامت حضارات بقيت آثارها إلى اليوم ، فماذا كان شأن الخليج الفارسى الذى يسمح موقعه بأن تنشأ فيه حضارة وأن يستقر فيه سكان لهم استقلالهم ويخضعون لما تخضع له الشعوب الأخرى من تأثر بالبيئة ، ونقل عن الشعوب المجاورة . إن ما يصدق على اليمن يصدق أيضا على البحرين ، وما يصدق على هذه يصدق على الحجاز ، وما يصدق عليها جميعا يصدق على شمالى الجزيرة حيث كان يقيم المناذرة والغساسنة .

وإذن فنحن حين نتصور الجزيرة العربية بقعة من الأرض لها حدود واضحة ، نخطئ إذ نتصور أن شعبا واحدا له لسان واحد كان يسكنها .. وإنما كانت تقيم فى جزيرة العرب شعوب ، فلنسمها الشعوب العربية رعاية لاسم شبه الجزيرة ، ولكن لا ينبغى أن تخدعنا هذه التسمية فى أمر اللغة التى ينطق بها هؤلاء جميعا ويتخاطبون بها ..

فإذا نحن أقمنا فى الحجاز مدة من الزمان ، وأقمنا فى مكة بصفة خاصة . فانا نجد هذه القرية تدير حركة تجارية واسعة تمتد إلى كل وجه من وجوه الجزيرة ، فقوافلها تسير إلى الشمال وتتصل بنصرانية بيزنطة ، وتعلم من شأن هذا الدين شيئا غير قليل . وتسير أيضا إلى الشمال الشرقى وتتصل بمجوسية فارس وتعلم عن دينها وآدابها ما يسمح لأحد أهل مكة أن يجلس فى الكعبة ويقص أحاديث رستم واسفنديار ليعارض بها القرآن . وهذه الرحلات إلى الشمال كانت وسيلة لنقل التجارة كما كانت وسيلة أيضا لنقل كثير من الألفاظ والتعبيرات باللغات التى كانوا يتخاطبون بها هناك وهى اللغة الفارسية واللغة اليونانية القديمة — وربما الرومانية — واللغة السريانية واللغة العبرية .. وذلك أن اتصال الحجاز وأهل مكة باليهود كان أقوى من غيره من الاتصالات . فقد كان يسكن اليهود غير بعيد من مكة ، ويقيمون فى أماكن

تصعد شمالا حتى فدك وأم القرى وهو طريق من طرق التجارة الذى تنزل فيه القوافل وتمير يهود هذه البلاد وتمتار منها

هذه رحلات الشمال ، وما يقال عنها يقال أيضا عن رحلات الجنوب .

ولم يقتصر الأمر على رحلات أهل مكة إلى هـذه الأماكن جميعا ، وإنما تجاوزه إلى أن يقيم فى مكة ناس من الفرس واليونانيين وأقباط مصر وأهل الحبشة وأهل الجنوب وغيرهم . ومن المؤكد أن هؤلاء القوم الذين حملتهم ظروف شتى على الإقامة فى مكة كانوا يقيمون فيها وألسنتهم معهم ، وكان اتصالهم بأهل هـذه القرية يضطرهم إلى تعلم لغتها العربية القرشية كما ينقل إلى لسان المكيين ألفاظا غير قليلة من هؤلاء الذين يقيمون بينهم

فإذا صح لدينا هذا كله — وهو صحيح — فمن السهل أن نتصور أن لغة المكيين كانت تمتاز عن لغة بقية الحجاز بوجود هـذه الألفاظ الكثيرة فيها ، التى تستعين بهـا فى تحديد المعانى وفى وصف أشياء لا عهد لسكان القرى الأخرى فى أطراف الحجاز وفى نجد بها . ومن السهل أيضا أن نتصور امكان انتقال قليل من هذه الألفاظ إلى القبائل الأخرى تبعا لحركة الحجيج كل عام الذى كان يفد إلى مكة وينصرف منها ليعود فى عام قابل .

ومن هنا يمكن أن نقرر أن أهل مكة عرفوا لغات أجنبيـة إلى جانب لغتهم الأصلية ، وأن اللغة الأصلية نفسها تأثرت بهذه اللغات التى تنتقل إلى مكة من الأجانب المقيمين بها ، أو تنتقل إليها مكة فى متاجرها .

وقد كونت هـذه الرحلات وهذه الاتصالات إلى جانب التأثير اللغوى ثقافة غير هينة ، كما وجدت حركة تدوين وقراءة .

■■■

هذا هو شأن مكة ولغة أهلها . ورسول الله قد نشأ فى مكة ، وتأثر فى حياته الأولى بما كان يتأثر به أهلها من ظروف شتى . وكان رسول الله يسافر إلى الشمال ، وكانت له قرابة فى بنى النجـار الذين يقيمون فى يثرب حيث يستقر اللسان العبرى والسريانى مع اليهود المقيمين هناك . ولم يقل أحد ان رسول الله لم يكن يعلم شيئا من أمر هذه اللغات التى تأثرت بها مكة ، وأمر هذه الثقافات التى ذابت فيها .

بل أكثر من هذا ، فإن لدينا من الحوادث مايؤكد اتصال رسول الله وهو فى مكة بهؤلاء الأجانب الذين كانوا يقيمون فيها ، وكان يزورهم ويطيل صحبتهم .. فقد روى عن عبيد الله بن مسلم قال : كان لنا غـلامان روميان يقرآن كتابا لهما بلسانهما ، فـكان النبى صلى الله عليـه وسلم يمر بهما فيقوم فيسمع منهما .. وروى عن ابن اسـحق أن رسول الله كثيرا ما كان يجلس عند المروة إلى سبيعة — غـلام نصرانى يقال له جبر — عبـد لبعض بنى الحضرمى . وعن ابن عباس أن النبى كان يزور — وهو فى مكة — أعجميا اسمه بلعام ، وكان المشركون يرونه يدخل عليه ويخرج من عنده . وفى رواية

أخرى أن غلاما (كان لحويطب بن عبد العزى) قد أسلم وحسن إسلامه اسمه عائش أو يعيش ، وكان صاحب كتب ، وقيل هو جبر ، وقيل هما اثنان جبر ويسار ، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل . فكان رسول الله إذا مر عليهما وقف يسمع ما يقرآن .. الخ .

وإذن فقد كان رسول الله يسمع ما يقرأ فى الكتب بلغة غير لغة مكة ، وكان يفهم ما يتلى عليه .. وقد ورد فيما ذكرنا قبل من آيات القرآن أن المشركين كانوا يتهمون النبى بأنه يأخذ هذا القرآن عن العجم ، فرد عليهم يبطل قولهم : « ولقد نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يقولُونَ إنما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . لِسَانُ الذين يُلْحِدون إليه أَعْجَمِيٌّ . وهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين » .

■ ■ ■

وقد نزل القرآن باللغة العربية القرشية التى ذكرنا أن كثيرا من ألفاظ اللغات الأخرى ، ولغات القبائل المجاورة ذابت فيها . وقد فهم الصحابة القرآن إجمالا ، ولكن ألفاظا غير قليلة استغلقت عليهم ، بل إن بعضها لا يزال مستغلقا علينا إلى اليوم على الرغم من أن وسيلة العلم ببعض اللغات القديمة قد توفرت لدينا . وقد ذكرنا فى مقدمة الكتاب أن عمر بن الخطاب لم يفهم كلمة « أب » وله العذر ، فهى كلمة حبشية ، وقد ذكرنا فى باب لغة القرآن بعض الألفاظ التى تشبه ألفاظا سريانية وعبرية ، وليس لها أصل عربى

واضح . ووردت روايات عن ألفاظ فى القرآن لم يكن بعض الصحابة يفهمونها لأنها مستعملة عند بعض القبائل وليست مستعملة عند قريش . ومن هـذا ما روى عن ابن عباس أن اعرابيين اختصما لديه فى بئر فقال أحـدهما (أنا فطرتها) وعارضه الثانى . قال ابن عباس : ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى : « فَاطِرِ السماوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

وروى عن ابن عباس أيضا أنه لم يكن يفهم معنى الآية : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ » حتى سمع فتاة من اليمن (بنت ذى يزن) تنـادى زوجها تعال أفاتحك تقصد أحاكمك .. وروى عن عمر بن الخطاب أنه سأل عن معنى الآية « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » فقيل له تنقص لهم ..

وروى عن ابن عبـاس أيضا قال : كل القرآن أفهمه إلا أربعا غسلين وحنانا وأواه والرقيم . وإذا صح لابن عباس أن يجهل الغسلين والحنـان ، فلا عذر له فى جهل أواه !! . وهذه الرواية وغيرها لإنسوقها على أنها مقطوع بصحتها ، ولـكن لـكى ندل على أن فى القرآن ألفاظا غير قليـلة أغلق فهمه على الصحابة ، حتى ان أبا بكر قال : (أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى ان أنا قلت فى كتاب الله مالا أعلم) .

وقد ذكر ابن النقيب فى خصائص القرآن أن القرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شىء كثير .

ومن الألفاظ غير العربيـة التى فطن الأقدمون إلى وجودها فى القرآن ما يأتى :

استبرق ـ يونانية
ابلعى (ماءك) ـ قالوا هندية أو حبشية
الأرائك ـ حبشية
اصر : اى عهد ـ نبطية
أواب ـ اى المسبح بالحبشية
بطائنها ـ اى ظواهرها بالقبطية
تنور ـ فارسية
جهنم ـ يونانية أو فارسية
حواريون ـ أى غسالون بالنبطية وتنطق فى النبطية هوارى
درى ـ أى مضىء بالحبشية
الرس ـ أى البئر باليونانية
السجل ـ الكتاب بالفارسية
سرياً ـ قيل سريانية ونبطية ويونانية
الصراط ـ الطريق بلغة الروم
عدن ـ الكروم والأعناب بالسريانية
غيض ـ اى نقص بالحبشية
القسط ـ العدل
قسورة ـ الأسد بالحبشية
كفلين ـ أى ضعفين بالحبشية
مشكاة ـ الكوة باللغة الحبشية
منسأة ـ عصا بلسان النبط
المهل ـ الزيت بلسان البربر
هونا ـ يمشون على الأرض هونا أى حكماء بالسريانية
هيت لك ـ أى هلم بالقبطية

أب ـ حبشية
أخلد (إلى الأرض) ـ قالوا عبرية
اسفار ـ سريانية او نبطية
أليم ـ اى موجع قالوا زنجية أو عبرية
الاواه ـ الموقن بالحبشية
بعير ـ عبرية
الجبت ـ اسم الشيطان بالحبشية
حصب ـ بمعنى حطب فى الزنجية
دينار ـ فارسية
رهوا ـ سهلا بالسريانية
سجيل ـ فارسية
سندس ـ فارسية وهندية
الطاغوت ـ الكاهن بالحبشية
غساق ـ المتن البارد بالتركية
الفردوس ـ البستان بالرومية
القسطاس ـ الميزان
كافور ـ بالفارسية
كورت ـ أى غورت بالفارسية
مرقوم ـ مكتوب بالعبرية
مناص ـ فرار بالنبطية
ناشئة ـ ناشئة الليل أى قيام الليل بالحبشية
وزر ـ الملجأ بالنبطية

ياقوت ـ بالفارسية	يحور ـ يرجع بالحبشية
يسن ـ إنسان ـ أو رجل بالحبشية	يعهد ـ أى ينضج باللغة البربرية
اليم ـ البحر بالسريانية أو القبطية	الفوم ـ الحنطة بالعبرية

وقد أورد السيوطى هذه الألفاظ وغيرها فى إتقانه كما أورد مئات الألفاظ وردت فى القرآن بغير لغة الحجاز ، ومنها لغات اليمن ، وقد نصّ على كثير من الألفاظ الحميرية بالذات . فقد ذكر مثلا أن أسطورا بلغة حمير تعنى الكتاب وعلى هذا يفهم قوله : « كِتَابٍ مَسْطُورٍ » وذكر أن اللهو بلغة اليمن المرأة . وعلى هذا تفهم الآية « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » . وذكر مثلا من كلمات الجنوب نقب ، وحور . . الخ .

وقد شغف علماء المسلمين بتتبع ألفاظ القرآن وغريبه ، وذكر السيوطى أسماء كثيرين ألفوا فيه . . والطريقة التى كان يتبعها هؤلاء المؤلفون هى أن يحاولوا إيجاد أصول عربية لكل لفظ ، بأن يوجدوا له فعلا . فكلمة سورة من سأر . . الخ . . وذلك لأنهم لم يكونوا يعلمون هذه اللغات التى كانت سائدة ومنتشرة فى وقت النبى ، والتى حصرها الفتح الإسلامى فى أضيق نطاق أو أماتها . . مثل ما صنع فى لغات شبه جزيرة العرب

ترى ما الذى يمنع ، وقد صح لدينا أمر الألفاظ القرآنية والمصادر العديدة التى جاءت منها ، أن تكون الأحرف السبعة ، هى هذه اللغات العديدة التى ذابت فى لغة قريش والتى علم النبى بعضها والتى تضمنتها ألفاظ القرآن ؟ ! !

انا نرجح أن هذا هو الصواب فى شأن الأحرف السبعة فهى تشير الى ألفاظ كثيرة من لغات عدة استعملها القرآن ، منها الفارسية واليونانية والآرامية والكلدانية والحبشية والحميرية والعبرية والسريانية والمصرية وكلها أضيفت إلى لغة قريش ، فقوّت من شأنها ، وأزالت الركاكة والغثاثة التى كانت موجودة فى لغة القبائل الأخرى التى كانت تفد الى الحج ، وهى التى تلتزم حروفاً بدل حروف مثل إبدال كاف المؤنث شيناً ، فيقولون (كتابش) بدل كتابك (قبيلة قيس) . ومثل الذين لا يستطيعون النطق بالسين فيستبدلونها بتاء فالناس عندهم النات (وهم قبيلة تميم)

خلا القرآن من هذه اللهجات الكثيرة ، والتزم الاعراب فى أواخر الكلمات جميعاً ، ولم يكن ملتزماً فى كثير من اللغات الأخرى ، وعرف النبى وهو متلقى الوحى ، ومعلم القرآن الأول ، تفسير ما أُنزل عليه كله . وما سأله عنه أصحابه كان يخبرهم به . . ولعلهم كانوا يتحاشون سؤاله فى كثير من الألفاظ ، بدليل جهل كبارهم بها بعد وفاته ونهيهم عن التكلف والتعمق ، أى البحث فى معنى كل لفظ ، والتنقيب وراءه . .

وليس هذا الذى نقول فى أمر ألفاظ القرآن ؛ وانها هى الأحرف السبعة قولاً شاذًّا لم يقل به أحد و إنما قال به كثيرون منهم أبو عبيد القاسم بن سلام وثعلب ، وأبو حاتم السجستانى وغيرهم ، وقد أورد القرطبى دفاعاً حارًّا عن هذا الرأى معارضاً به الذين يقولون إن القرآن نزل بسبع لغات مختلفة ، فكان

جبريل (فيما نقل السيوطى) ينزل بالآية بلغة قريش ثم يتلوها باللغات الست الأخرى أى يترجمها إلى هذه اللغات ! !

ورأينا هذا يحتاج الى دفاع عنه حتى يثبت ويتقرر فى الأذهان .

وأول ما نقول فيه ، انا نريد أن نسأل من اختاروا القول بأن القرآن نزل بسبع لغات متفرقة ، كيف يكون الحال لو أن البحث أدى الى الكشف عن وثائق تظهر هذه اللغات الست الباقية ، هل كان كل منها يعد قرآناً وهل يمكن لمعجزة البلاغة القرآنية إذا نقلتها من اللغة المعروفة اليوم الى لغة أخرى ، أن تظل كما هى فى بلاغتها وروعتها ، وتسميها قرآناً ؟ !

يقولون لا . ليس المراد لغات كاملة بنحوها وصرفها وأصولها وفروعها مثل ما هو الحال مثلا فى اللغة العربية واللغة اللاتينية ، ولكن هذه الألفاظ التى تترادف ويمكن أن يوضع لفظ منهامكان لفظ ؟ ! !

وهذا أيضاً قول بغيض ، يدل على تمسك بأسطورة عتيقة جاء الوقت لهدمها ، وهى أن اللغة العربية كثيرة المترادفات إلى حد الإزعاج ، حتى ليحكى عن الأسد عشرات الأسماء ، وعن كل لفظ مترادفات له لا حصر لها ولا عد . .

نقول ان هذه الأسطورة يجب ان تزول الى الأبد احتراما للغة العربية نفسها . فهم يقولون فى الأحرف السبعة لكلمة « هلم » ، التى يمكن أن يكون القرآن قد نزل

بها إنها : هلم ، وأقبل ، وتعال ، و إلىّ ، وقصدى ، ونحوى ، وقربى . .
من قال ان دلالة كل لفظ من هذه الألفاظ السبعة يتفق فى مدلوله مع الباقى ؟
من قال ان لفظ (قربى) يدل على المعنى الذى يدل عليه (الىّ) ؟.. فى الىّ
معنى النداء مع شىء من اللهفة أو الاستغاثة . أما قربى فهى دعوة إلى أن يكون
شىء أو شخص بقرب آخر . فمن قال ان هذا المعنى هو ذاك ؟. ومن قال إن
(تعال) تدل فى معناها على ما تدل عليه (نحوى) ؟ إنى أستطيع أن أقول
لك (تعال نحوى) فأفيد معنى غير الذى تفيده كلمة (تعال) وحدها .
ان شيئاً من الفطنة والتفكير السليم يدلان على أن اللغة العربية كثيرة الألفاظ
ولكنها ليست كثيرة المترادفات . وما حاجة قريش الى أن تستعير من
هوازن لفظا عندها وتستعمله ، انما تحتاج من هوازن وغيرها إلى لفظ يؤدى
معنى غير معنى اللفظ الذى تستعمله . . وهكذا .

واذن فمن الخطأ كل الخطأ ان نقول ان قرآنا نزل لكى يكون
معجزة نبى ، ثم نقول إنا قادرون على أن نبدل لفظا مكان لفظ لأن لدينا
الكثير من الألفاظ . ولا يكفى أن يقال انما كان ذلك برخصة من النبى ،
فهو وحده الذى يستطيع إجازة هذا اللفظ مكان ذاك ، أو يقال ان جبريل
كان ينزل بسبع لغات معاً . فهذه الروايات لا تثبت للنقد ، وإلا لاحترمنا
الرواية التى تقول عن ابن مسعود إنه كان يعلم عربيًّا القرآن ، فتعذر عليه

نطق لفظ أثيم فقال له قل مكانه فاجر . ذلك أن الأثيم غير الفاجر ، ثم انه إذا جاز جدلا لابن مسعود أن يبدل هذا التبديل فهل هو جائز لغيره ؟

استمع مثلاً إلى هذه الآية :

« لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا » ثم نقرأها على الأحرف التى يقولون عنها ، هكذا (للذين آمنوا أمهلونا) و (للذين آمنوا أخرونا) و (للذين آمنوا ارقبونا) . ولنترك القارئ يدقق النظر قليلا ويمعن الفكر ، ويرى هل يتفق معنى هذه الآيات ، هل يبقى لها مكانها من الإعجاز وهى بهذه الكثرة !

واسمع الآية الأخرى :

« كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ » و (كلما أضاء لهم مروا فيه) و (كلما أضاء لهم سعوا فيه) . . مَن قال ان مشى ، بمعنى مر ، وانهما معاً بمعنى سعى !

الأحرف السبعة اذن شىء آخر غير هذه التعديلات والتبديلات ، وأدنى إلى الصواب فى توضيحها ما ذكرناه من تضمن القرآن الكثير من الألفاظ الأعجمية التى دخلت إليه وإلى لغة قريش من الشعوب المحيطة بشبه الجزيرة .

■■■

وسيقولون : وما شأن هذه الأحاديث التى تروى عن اختصام بعض الصحابة لأن بعضهم كان يقرأ قراءة لم يسمعها صاحبه ؟.. ومن هذه الأحاديث ما رواه مسلم عن أبى بن كعب قال :

(كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر ، فقرأ قراءة سوى صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت إن هـذا قرأ قراءة أنكرتها عليه . ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه . فأمرهما النبى صلى الله عليه وسلم فقرآ ، فحسّن النبى صلى الله عليه وسلم شأنهما . فسقط فى نفسى من التكذيب (حدث فى نفسه شك) ولا إذ كنت فى الجاهلية . فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ما قد غشينى ضرب فى صدرى ففضضت عرقا ، وكأنى أنظر إلى الله تعالى فرقا . فقال يا أُبى أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف . فرددت إليه أن هون على أمتى ، فرد إلى الثانية أن اقرأه على حرفين . فرددت إليه أن هون على أمتى . فرد إلى الثالثة أن اقرأه على سبعة أحرف . ولك بكل ردة رددتها تسأليها فقلت اللهم اغفر لأمتى ورددت الثالثة ليوم يرغب إلى فيه الخلق كلهم حتى ابراهيم عليه السلام .

وروى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأنيها . فكدت أن أعجل عليه . ثم أمهلته حتى انصرف ، ثم لببته بردائه ، فجئت به رسول الله فقلت يا رسول الله إنى سمعت هـذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها . فقال رسول الله أرسله . اقرأ . فقرأ القراءة التى سمعته

يقرأ . فقال رسول الله . هكذا أنزلت ثم قال لى اقرأ . فقرأت . فقال هكذا أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف . »

وغير هذين الحديثين أحاديث كثيرة ، تدل على اختلاف الصحابة فى قراءة القرآن أيام النبى ، واجازة النبى لهذه القراءات . إلا ان أحد هذه الأحاديث الكثيرة ـ ويروى عن ابن مسعود ـ يقول انه سأل رسول الله فى شأن هذه القراءات التى يسمعها فتغير وجهه وقال : (إنما أهلك من قبلكم الاختلاف) .

والتوفيق بين هذه الأحاديث الكثيرة ، التى تكاد تتفق فى معناها ، وماذكرنا من تفسير للأحرف السبعة عسير . ولكن لتفهم الأحاديث على أى وجه شاء الناس ، أما الذى نعتقد أن من الخير فهمه هو عدم جواز هذا التبديل والتعديل فى القرآن : فاختلاف الناس فى شأن أحاديث جمعها المتأخرون من المسلمين ، أهون بكثير من اختلافهم فى شأن نصوص القرآن . ولكنا مع هذا نجد من بين هذه الأحاديث ما ينهى عن الاختلاف الذى أهلك اممًا سابقة . والنهى عن الاختلاف معناه الدعوة للتوحيد . . وما نقول فى شأن هذه الأحاديث إنها تشير الى القراءات التى كان يقرأ بها هؤلاء الذين ورد ذكرهم تبعا لتغير لهجات القبائل المختلفة من مد وقصر وإمالة وإشمام وإدغام ، أو أنها تشير إلى تفسيرات لبعض ألفاظ أباح النبى فى ظرف من الظروف

التلاوة بها لبعض من سمعها منه تيسيرا وتسهيلا ، وقد مر بنا كثرة الألفاظ الأعجمية فى القرآن ، وكثرت الألفاظ العربية المستعارة من قبائل غير قبيلة قريش .

ويشبه هذا ما تذكره كتب القراءات ، من أنه بعد القراءات السبع توجد القراءة الشاذة . والقراءة الشاذة هى أن بعض الصحابة والمفسرين أضافوا إلى بعض الآيات ألفاظا توضحها مثل قول عائشة وحفصه (والصلاة الوسطى .. صلاة العصر) فاضافة الجملة الثانية من باب التوضيح . ومثل قراءة جابر ، فإن اللهَ بعدَ إ كْرَاهِهِنَّ (لهنَّ) غفورٌ رحيم . بل ان من القراءات الشاذة أشياء تبعث على الضحك كأن يكتب أحد القدماء على هامش مصحفه تفسير كلمة ، ويذكر بجوارها (قاله حسن) ، فيأتى مقرئ متأخر ، ويضيف الجملة كلها ، ويقرأها مع القرآن .. هذه القراءات الشاذة ، مع ظهور تنافرها بين النصوص القرآنية كانت موضوع خلاف بين العلماء . فمنهم من منع القراءة بها ، مثل الشافعى والقشيرى وابن الحاجب . ومنهم من أجاز القراءة بها مثل القاضيين أبى الطيب والحسين والرافعى .

فهل يجوز أن نفهم اباحة النبى بعض هذه القراءات مثلما أباح بعض المتأخرين قراءات أخرى ظاهر منها الشذوذ ، وإن فيها ما لم ينطق به النبى وما لم ينزل به وحى السماء !! . هؤلاء نحن وقفنا عند الأحاديث التى تروى ، واضطررنا إلى أن نلتمس لها التفسير والتأويل .

■ ■ ■

وخير ما نختم به هذا الفصل قوله تعالى :

« وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً . لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » الأنعام .

وقوله : « وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » .

وقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

— ٨ —

فواتح السور

و يتصل بعض الشيء بما ذكر عن لغة القرآن ، هذه الحروف التى تبدأ بها بعض السور مثل حم . . كهيعص . ن .. المص...الر .. الم الخ ..

ما شأن هذه الحروف ، وما قصتها ؟ !

أما الزمخشرى فيقول فى كشافه :

فيه أوجه ! ! أحدها وعليه إطباق الأكثر أنها أسماء السور . وثانيها أن الله أقسم بها . وثالثها أن ترد السورة مصدرة بهذه الحروف لتكون أول ما يقرع الأسماع .

وذكر أن عدد هذه الحروف اختلف من واحد الى خمسة للتفنن فى أساليب الكلام . وذكر أنها وردت أكثر من مرة لإعادة التنبيه

وأما السيوطى فقال : إن هذه الحروف سر من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله . . ولكنه نقل بعض آراء . فنقل عن ابن عباس أنه قال « ألم » معناها أنا الله أعلم . (المص) معناها أنا الله افصل . (الر) معناها أنا الله أرى

وروى عن ابن عباس أيضا فى (كهيعص) قال الكاف من كريم ، والهاء من هاد ، والياء من حكيم ، والعين من عليم والصاد من صادق .

وذكر السيوطى روايات أخرى أن بعض هذه الحروف هى أسماء لله ، مثل حرف (ق) ، (طسم) ، (الم) ، (ص) .

وأورد روايات أخرى مؤداها أن هذه الحروف صوت الوحى عند أول نزوله على النبى ، وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة فى التنبيه كألا ، وأما ، لأنها من الألفاظ التى يتعارفها الناس فى كلامهم ، والقرآن كلام لا يشبه الكلام . فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ فى قرع الاسماع .

وذكر أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه ، فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ، ويكون تعجبهم منه سببا لاستماعهم ، وسماعهم له سببا لاستماع ما بعده فترق القلوب وتلين الأفئدة .

■ ■ ■

وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية فى بحثها عن القرآن أن العلماء تعبوا كثيرا فى فهم المقصود من هذه الحروف . وأن بعضهم حاول أن يحلها كما يحل الأحاجى والألغاز كأن يؤلف كلمة الرحمن مثلا من (الر ، حم ، ن)

ووردت هذه الحروف فى ٢٩ سورة كلها من العهد المكى إلا ابتداء سورتى البقرة وآل عمران فقد ورد فى العهد المدنى .

وجملة الحروف التى تكررت فى هذه الابتداءات أربعة عشر حرفا .

■■■

وورد فى كتاب النثر الفنى للدكتور زكى مبارك أن من مميزات القرآن « الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل الم ، حم ، طسم ، الر ، ص ، ن ، ق . إلى آخر تلك الفواتح التى اختلف فى تأويلها المفسرون ، والتى لم يهتد أحد إلى المراد منها بالتحديد . وهذا النمط من الابتداء لم نجده فى النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية .

ثم قال صاحب النثر الفنى : « كنت أتحدث عن فواتح السور مع المسيو بلانشو ، فعرض علىّ تأويلا جديراً بالدرس والتحقيق ، وفى رأيه أن الحروف (الم . الر . حم . طسم) هى كالحروف (A O I) التى توجد فى بعض المواطن من (Chansons degeste) فهى ليست إلا (Neumes) أى إشارات و بيانات موسيقية يتبعها المرتلون .

«وقد كانت الموسيقا القديمة بسيطة يشار إلى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة . وكان ذلك كافيا لتوجيه المغنى أو المرتل إلى الصوت المقصود .

«وفى الكنائس المسيحية بأوربا حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجورى (Le Chante grégorien) وفى اثيوبيا مثلا يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك فإن رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التى تذكر بـ « الم » فى القرآن أو (A O I) فى نشيد رولان .

ويؤيد رأى المسيو بلانشو أن (الم) تنطق هكذا عند الترتيل (الف . لام . ميم) فهى ليست رمزا كتابيا ولكنها رموز صوتية .

ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل فى القرآن سارت فى طريق كان معروفا عند أهل الجاهلية . ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همه أن يخالف الجاهليين فى كل شىء حتى فى الأصوات الموسيقية . فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل ، وأن تكون متابعة لبعض الترانيم الجاهلية .

ونحن مع اعتدادنا بقيمة هذا الرأى نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحق من العناية مع تطوعهم لعرض كثير من الفروض . ولو أنه كان معروفا فى الصدر الأول لما تعرض لمثل هذا الاغفال .

«ومن يدرى، فلعل دراسة أصول الموسيقى فى الكنائس الحبشية والشامية فى العهد الذى سبق الإسلام تعود على هذا الرأى بشىء من التوضيح والتحديد . وإلى أن تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأى بين الشك واليقين» (انتهى كلام كتاب النثر الفنى) .

ونحن نتفق مع الدكتور زكى مبارك فى أن لهذا الرأى قيمته ، ولكنه لم يهمل إهمالا كما قال ، إذ يقرب منه ما ذكر من أن هذه الحروف كانت تنبيها من الوحى بقرب نزول القرآن . أى انها أصوات كان النبى يسمعها فى

باطنه ، ثم يرى نفسه قد جاشت بمعانى القرآن وألفاظه .. فإذا أضفنا إلى هذا ما ذكره الزمخشرى من أنه أريد بها تنبيه الاذهان وقرعها قبل ابتداء قراءة السور كان القول قريبا من الصواب . وقد يكمله ما نقل السيوطى من أنه أريد مفاجأة العرب برموز وإشارات لا عهد لهم بها ليزداد التفاتهم وتتنبه آذانهم ونفوسهم .

القلوبُ وأقفالها

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »

— ١ —

قرآن مكة وقرآن المدينة

نزل القرآن على رسول الله متتبعا الحوادث التى عرضت له فى حياته ، هاديا له ، ومجيباً على أسئلته وأسئلة الناس ، متضمنا المبادئ الكبرى للدعوة الإسلامية ومنيراً الطريق أمامها .

ولم يكن النبى يقيم فى مدينة واحدة حتى يقال ان القرآن نزل فى هذه المدينة ولكنه تنقل فى قسم كبير من قرى الحجاز وصحرائها ، وكان الوحى ينزل عليه فى الإقامة كما كان ينزل عليه فى السفر .

ومن يفتح مصحفه (الطبعة الملكية المصرية) يجد على رأس كل سورة ذكراً لاسمها و بيانا لمكان نزولها ، وعدد آياتها ووقت نزولها .

فمثلا « سورة التكوير — مكية — وآياتها ٢٩ — نزلت بعد المسد »

« وسورة القلم — مكية — إلا من آية ١٧ إلى غاية آية ٣٣ ومن آية ٤٨ إلى غاية آية ٥٠ فمدنية — وآياتها ٥٢ نزلت بعد العلق » .

« وسورة محمد مدنية إلا آية ١٣ — فنزلت فى الطريق أثناء الهجرة — وآياتها ٣٨ نزلت بعد الحديد » .

« وسورة القصص مكية إلا من آية ٥٢ إلى غاية آية ٥٥ فمدنية . وآية ٨٥ فى الجحفة أثناء الهجرة وآياتها ٨٨ نزلت بعد النمل » .

« وسورة المجادلة مدنية — وآياتها ٢٢ نزلت بعد المنافقون » .

« وسورة النصر نزلت بمنى فى حجة الوداع فتعد مدنية وهى آخر مانزل من السور وآياتها ٣ نزلت بعد التوبة » .

وفى التعريف بالمصحف نجد هذه العبارة (أخذ بيان مكية ومدنية من الكتب المذكورة وكتاب أبى القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافى وكتب القراءات والتفسير على خلاف فى بعضها ..)

وترى من الأمثلة التى سقناها من قبل أن من السور ما نزل فى مكة ومنها ما نزل فى المدينة ومنها ما نزل فى حجة الوداع ، ومن الآيات ما نزل فى سفر من الأسفار

فما هى الفوارق الواضحة بين قرآن مكة وقرآن المدينة وقرآن الرحلات ؟ وما هى الضوابط التى تراعى فى تعيين أماكن نزول الآيات ؟

أما قرآن مكة فيمتاز بأن آياته أوفر عدداً وأقصر جملاً وأكثر التزاماً لنغمات موسيقية معينة .

ويبلغ القرآن المكى فى كميته نحو ثلثى المصحف (١٩ من ٣٠) وقارئ المصحف يلاحظ أن جزء تبارك مكى كله وآياته ٤٣١ . وجزء عم مكى أيضاً وآياته ٥٧٠ ، فى حين أن جزءاً آخر هو جزء قد سمع مدنى كله وآياته ١٣٧ فقط .

ومثال آخر يوضح الفرق بين طول الآيات المدنية بالنسبة للآيات المكية هو سورة الشعراء وسورة الأنفال . فالأولى منهما نصف جزء من أجزاء المصحف[1] وعدد آياتها ٢٢٧ . والثانية نصف جزء أيضاً وعدد آياتها ٧٥ فقط أى نحو ثلث عدد آيات الشعراء . وذلك لأن الأولى نزلت فى مكة ، والثانية نزلت فى المدينة .

وقد أحصيت آيات القرآن المدنى فبلغت ١٤٥٦ آية وهى تزيد قليلا عن ربع مجموع آيات المصحف .

■■■

وقد ذكر السيوطى اصطلاحات يمكن التفريق فيها بين قرآن مكة وقرآن المدينة . قال :

اعلم أن للناس فى المكى والمدنى اصطلاحات ثلاثة أشهرها :

أولا — أن المكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها سواء نزل

---

(١) المصحف ثلاثون جزءا وسوره ١١٤ سورة

بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار . أخرج عثمان بن سعيد الرازى بسنده إلى يحيى بن سدم قال : ما نزل بمكة ، وما نزل فى طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فهو مكى ، وما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدنى ، وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل فى سفر الهجرة مكى اصطلاحاً .

الثانى — أن المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة وعلى هذا تثبت الواسطة . فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكى ولا مدنى . وقد أخرج الطبرانى أن رسول الله قال : أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة : مكة والمدينة والشام . (وقيل فى تفسير الشام إنها بيت المقدس أو تبوك وهذا أرجح) . قال السيوطى : ويدخل فى مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية . وفى المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأحد وسلع .

الثالث — ان المكى ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة . قال القاضى أبو بكر فى الانتصار : إنما يرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين . ولم يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك قول ، لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة . وان وجب فى بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ ، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول .

وأخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال : والذى لا إله غيره ، ما نزلت

آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت . وقال أيوب سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : نزلت فى سفح ذلك الجبـل ، وأشار الى سلع .

■■■

وهناك ضوابط أحصاها القدماء تميز المـكى من المدنى وهذه الضوابط هى من قبيل الإحصاء ، إذ أنها بنيت على ما جاء فى مصحف عثمان بن عفان

أولا — كل ما كان أوله : «يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا» أنزل بالمدينة وما كان أوله «يٰأَيها الناس أو يابنى آدم» فبمكة . إلا أن هذه القاعدة لاتصلح للتطبيق فى جميع القرآن فمثلا سورة النساء مدنية وأولها «يٰأَيُّها الناس» ، وفى سورة البقرة كذلك يٰأيها الناس (١) وسورة الحج مكية وفيها «يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا» .

ثانياً — كل ما نزل من القرآن فيه ذكر الأمم والقرون فانما نزل بمكة . وما كان من الفرائض والسنن فإنما نزل بالمدينة .

ثالثاً — كل سورة فى أولها كلا ، أو أولها حرف تهجٍ سوى الزهراوين والرعد أو فيها قصة آدم وإبليس سوى البقرة فهى مكية . وكذلك كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية . وكل سورة فيها ذكر المنافقين سوى العنكبوت فمدنية .

---

(١) أحصى الشيخ الخضرى سبع آيات فى السور المدنية فيها ياأيها الناس

■■■

ولمعرفة أماكن نزول السور والآيات أهمية كبيرة ، لأنها تعين على معرفة أسباب النزول وتواريخ الحوادث التى عرض لها القرآن وبذا تكون آياته أكثر وضوحا وقربا من الاذهان . وعندما نتحدث عن مصحف عثمان ابن عفان سنذكر رأينا فى الترتيب الذى التزمه ، كما نذكر ما انتهى إليه العلماء فى الترتيب التاريخى للمصحف .

— ٢ —

أسلوب القرآن

لم يلزم القرآن أسلوبا واحدا من اساليب الأداء .

فقد ذكرنا أن آيات القرآن المكى قصيرة ، وانها عنيفة اللهجة ، حادة الألفاظ ، ذات تأثير خطابى يهز الأسماع والنفوس . وقد كان النبى فى بدء دعوته ، ومدة مقامه بين أعداء لايهدأون ولا يلينون فى حاجة إلى أن يترجم القرآنُ فى أسلوبه عن حالته النفسية .

وهناك رأيان حديثان تناولا بحث أسلوب القرآن :

أحدهما للدكتور طه حسين يقول فيه ان الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام : شعر ونثر وقرآن . وهو بهذا يرى أسلوب القرآن ينهج نهجاً خاصا به لاهو بالشعر ولا هو بالنثر ، ولكنه قرآن ! وذلك أن القرآن عنده لا يخضع لقواعد النثر ولا لقواعد الشعر ،ولكن له موسيقا خاصة به ، تحسها فى تركيب ألفاظه وفى تتابع آياته .

ويعارض هذا الرأى الدكتور زكى مبارك ، ويؤكد فى كتاب النثر الفنى

أن القرآن نثر عربى ، بل هو أثر أدبى يختلف بعض الاختلاف عن الآثار التى جاءت بعده ، ويتميز بالصفات الآتية :

أولا — خلوه من الشعر الموزون خلواً تاما ، بخلاف ما كان قبله وبعده من النثر .

ثانيا — نظام الآيات الذى يسمح فى الغالب بوقف كامل تستريح عنده نفس القارىء ، وهو نظام يخالف نظام النثر المرسل ونظام السجع الذى أثر عن الجاهليين وشاع بعد الإسلام .

ثالثا — ضرب الأمثال وسوق القصص ، وتكرار القصة الواحدة كلما دعت مناسبة .

رابعا — الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل ألم . حم . ص .

خامسا — نظم القرآن الغنائى .

سادسا — لايلزم القرآن السجع . فقد نجد سوراً قصيرة مسجوعة ، وقد نجد صحفاً مسجوعة من السور الكبار ولكن ذلك لا يطرد فيه . وكثيراً ما ينتقل من السجع الى الكلام المرسل .

ووصف الاستاذ مصطفى صادق الرافعى أسلوب القرآن فقال : نزل القرآن بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وقصيره معاً . فكان أشبه شىء بالنور فى جملة نسقه إذ النور جملة واحدة ، وإنما يتجزأ باعتبار لايخرجه عن طبيعته . وهو فى كل

جزء من أجزائه وفى أجزائه جملة لا يعارض بشىء إلا إذا خلقت سماء غير السماء وبدلت الأرض غير الأرض . وإنما كان ذلك لأنه صفى اللغة من اكدارها ، وأجراها فى ظاهره على بواطن أسرارها ، فجاء بها فى ماء الجمال أملأ من السحاب ، وفى طراءة الخلق أجمل من الشباب . الخ .

■■■

وفى البحوث الطويلة التى عقدها المستشرقون عن القرآن ، يكاد رأيهم يجمع على أن القرآن هو من إنشاء النبى ، ويتحدثون عنه على أن أسلوب القرآن هو أسلوب محمد عليه السلام .

فمن هذا ما ورد فى كتاب تاريخ الأديان[1] من أن أسلوب النبى فى القرآن كان أول عهده بالدعوة مفعما بالعواطف ، قصير العبارات ، فخم الصور ، يقدم أوصاف العقاب والثواب فى ألوان صارخة ، وكثيرا ما يكرر الآيات تكرارا مملا حتى تنقلب معانيها إلى الضد . فلما تقدم الزمن بالنبى فقد الأسلوب حيويته الأولى ، وأخذ يقص فى نغمات هادئة بديعة قصص الأنباء مثلما تراه فى تأريخه لقصة حب يوسف وزوجه بوتيفار . وكانت هذه الصورة مثيرة لخيال كثير من شعراء الفرس والترك ، وفى آخر عهد النبى فقد الأسلوب كل حرارة وكل فن وأغرم بالجدل الدينى مع النصارى واليهود . الخ .

(1) Manuel d' Histoire des Religions P. D. Chantepie de la Saussaye

وهذا التلخيص لرأى واحد من المستشرقين يدل على مقدار الخطأ الذى يقعون فيه ، لأنهم فى أغلب الأحيان يعجزون عن النفوذ إلى أسرار كثير من الآيات والسور القرآنية على الرغم من فقههم العميق وبحثهم المتصل فى كتب التفسير . وذلك إن إدراك معانى القرآن ، لا يحتاج فقط إلى القاموس وإلى الشرح ، وإنما يحتاج قبل كل شىء إلى نفس صافية وروح مشرقة تستطيع أن تستشف، لا المعانى وحدها ، ولكن ما وراء المعانى . وألا تقف على مدلول اللفظ وحده ، ولكن على هذا الضوء النفسى الذى ينبعث من وراء المعنى .

فلنختر سورة من السور . أى سورة ، ولتكن : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا .

يأتى العالم الأوربى ، وكل عدته عقله ، ويعلم معانى الألفاظ ، كل واحد على حدة ، وينتهى إلى أن معنى السورة هو أن الله قد نصرك ودخل الناس فى دينك فاحمد الله واستغفره من ذنوبك فإن الله يتوب عليك .

هذا المعنى الحرفى الذى تدل عليه الألفاظ ليس كل شىء فى سورة الفتح . ذلك أننا نستطيع أن نؤدى هذا المعنى مع تغيير يسير فى الألفاظ لنرى ماذا تكون النتيجة . فلنقل مثلا :

إذا نصرك الله وأتاح لك الفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا .

إن هذا التعديل الخفيف فى بعض الألفاظ ونقل لفظ من مكانه يحيل الصورة المحكمة الرائعة التى كانت عليها سورة الفتح إلى كلام عادى تأثيره قليل

وسنذكر بعد قليل المحاولات التى بذلت لتقليد القرآن . ولكنا نسرع هنا فنذكر أنه نسب إلى أبى العلاء المعرى أنه أنشأ كلاما يعارض به القرآن ، وقال فلتصقله الألسن فى المحاريب أربع مئة سنة وعند ذلك انظروا كيف يكون .

فهذا المعنى دقيق ، وهو أن الكلام الذى يكثر تكراره يخف على السمع وعلى النفس ، ويبلغ من التأثير مبلغا لا يصل إليه غيره من الكلام . ولا نعلم بين جميع الآثار البيانية شعرا أو نثرا كلما ازداد الناس له تلاوة وترديدا كلما ازداد تأثيرا إلا القرآن . ففى اللغة العربية مثلا قصائد وأبيات من الشعر محفوظة قبل أن ينزل القرآن ، وترددها الألسن ، ولكنها لم تتجاوز على مر القرون مستوى أى كلام من أى نوع . فكم من مرة أنشدت قصيدة امرئ القيس : قفا نبك . وكم من مرة وقف عندها الناس وتأملوا فيها وعلموها للصغار ، ولكنها لم ترتفع من مرتبتها الشعرية أنملة واحدة .

كلام واحد ، كلما ازداد تكراره ازداد تأثيره ، هو القرآن . . ولا شىء يشبهه فى هذه الميزة بين آداب الدنيا كلها ، وبين كتب السماء وكتب الأرض .

ولقد وصل الأمر بالقرآن إلى أن أصبحت نغماته ميراثا ينتقل فى حواس المسلمين الباطنة من جيل إلى جيل ، حتى انتهينا إلى أنه يكفى أن تقال آية فيها خطأ أمام شخص لايحفظ القرآن ، ولكن له إلمام يسير ببعض سوره ، لكى يدرك أن فى هذه الآية لفظا قلقا وأن من الخير مراجعة المصحف .

فقداسة القرآن ، والإقبال على حفظه وترديده طوال ثلاثة عشر قرنا ، كل هذا يجعل هناك فرقا واضحا جدا بين مسلم يحاول تفسير القرآن والتماس وجود التأثير والإعجاز فيه ، وبين أجنبى لا يحفظ ، وإن حفظ فلا يدرك إلا بعقله ولا يقبل عليه إلا كما يقبل عالم النبات بمشرطه ومجهره . . هناك فرق واضح جداً بين هذا وذاك . ومن هنا كان الخطأ أسرع إلى المستشرقين وعلماء الغرب فى مباحثهم عن القرآن . وكان توفيقهم كبيراً جدا كلما تناولوا المسائل القرآنية التى لا تخضع إلا لحكم العقل مثل الإحصاء والترتيب والجمع والتفريق . فأما ما اتصل بموسيقا القرآن وبأسلوبه وبإعجازه فعلمهم به قليل ، ومشوب بما رأيت مثاله من أخطاء .

وهذه القاعدة النفسية التى ذكرناها هى وحدها التى ترد على هؤلاء الذين يقولون إن النبى هو الذى أنشأ القرآن من تلقاء نفسه .

فلدينا كتب الحديث ، وقد توفر المسلمون على دراستها وحفظ الكثير

منها طوال قرون وقرون . . . والمسلمون يحرصون على كلام نبيهم كما يحرصون على مصحفهم . . فاذا صح أن النبى هو منشئ هذا القرآن وأنه منشئ هذه الأحاديث أو بعضها على الأقل ، فمن أين يأتى الفرق الواضح فى الأسلوب وفى مجموعة الألفاظ وفى التأثير بين الحديث وبين الآية !

إن خصائص القرآن الأسلوبية تختلف اختلافا كبيراً جداً عن خصائص الحديث الأسلوبية . بل إن ألفاظ القرآن تختلف فى كثير عن الفاظ الحديث . . فهل يعقل أن يصدر عن شخص واحد كلامان أحدهما يخضع لقواعد معينة وتتطور هذه القواعد على مر الزمن الذى تم فيه الإنشاء مثلما فى القرآن ، والثانى يخضع لقواعد أخرى تختلف تماما عن قواعد الكلام الأول ، وتتجه فى مرتبتها البلاغية وفى درجة تأثيرها وجهة أخرى . . ومع هذا فيقال إن صاحب الكلامين واحد ! !

ولنزد هذه النقطة وضوحاً .

خطب رسول الله فى حجة الوداع فقال :

أيها الناس . . اسمعوا منى أبين لكم فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . . ألا هل بلغت . اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها .

و إن ربا الجاهلية موضوع و إن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب وان دماء الجاهلية موضوعة وان أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب . وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية[١] .

وفى نفس الوقت وفى نفس المكان نزلت الآية :

« . . الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا[٢] » .

ويكفى ترديد ما اقتبسناه من خطبة الوداع . وما أخذناه من آية الوداع لنرى أن من المخالف لطبائع الأحياء والأشياء أن يصدر ذلك الكلام بما فيه من نغم ومن معنى ومن أسلوب، وهذا الكلام بخصائصه كلها عن شخص واحد . وقد اتحد الظرف والمكان الذى صدر فيه كل من الكلامين

وقد وصف النبى نفسه فقال : إنه أفصح العرب .

ووصف القرآن نفسه فقال : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

---

(١) نص الخطبة كاملا فى كتاب العقد الفريد ج ٢ ص ١١٠ ، ١١١

(٢) آية ٣ سورة المائدة .

وكثيراً ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن أو يتلى عليه فيبكى . روى ابن مسعود : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ علىّ . ففتحت سورة النساء . فلما بلغت : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » رأيت عينيه تذرفان من الدمع . فقال حَسْبُك الآن .

— ٣ —

تحدى القرآن

مرّ بنا فى الفصل الذى عقدناه عن قريش والقرآن كيف أنها حاولت بكل وسيلة أن تمنع تأثر الناس من سماع القرآن ، فاصطنعت القصاص الذين يحفظون قصص الفرس لكى يتلوها . . كما أن سويد بن الصامت عرض على النبى مجلة لقمان التى تتضمن حكمه ، فلما تلى عليه النبى آيات من القرآن تمتم سويد : ان هذا القول حسن . . ثم طوى صحفه وانصرف

ولقد دعا القرآن قريشاً إلى أن تحاول محاكاته ، وأن تجتهد ما وسعها الاجتهاد فى الإتيان بسورة أو آية تشبه آيات القرآن . . قال لهم فى سورة القصص . .

« قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

وقال لهم فى سورة الاسراء : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ

يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

وقال لهم فى سورة هود : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

وقال لهم فى سورة يونس : « وَمَا كَانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ ، وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » .

وقال لهم فى سورة الطور : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » .

وقال لهم فى سورة البقرة : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ـ وَلَنْ تَفْعَلُوا ـ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »

وقد تدرجت دعوة التحدى كما هو واضح فى ترتيب الآيات الذى اخترناه ،

فبدأ بأن طلب منهم انشاء كتاب مثل هذا الكتاب وقد وردت هذه الآية فى سورة القصص ، وكان قد نزل قبلها سبع وأربعون سورة (حسب ترتيب نولدكه التاريخى) منها سور طوال مثل سورة يوسف ، وسور قصار مثل سورة الناس .

حارت قريش فى أمرها لا تدرى كيف تأتى بكلام مثل هذا الكلام ويظهر أنها حاولت أن ترد على هذا التحدى فعجزت ، ولذا نرى القرآن يخاطبهم بما ورد فى سورة الاسراء من أنهم لن يستطيعوا ، ولن يستطيع انس ولا جن أن يأتى بمثل هذا القرآن ...

ومضى القرآن فى تحديه فلم يطالب بكتاب ، ولكن طالب بعشر سور كما فى سورة هود .

ثم مضى خطوة أخرى فطالب كما فى سورة يونس بسورة واحدة . وكذلك طلب فى سورة البقرة أول السور المدنية ..

■ ■ ■

ترى ما الذى منع قريشا من أن تحاول الرد على هذا التحدى ؟ .. نحن للإجابة على هذا السؤال أمام فرضين :

أولهما : انها حاولت فكانت محاولتها غير مجدية . وظهر لها أن سجع

الكهان وهو أرقى صورة من الصور النثرية عندها لا يرقى إلى مرتبة البلاغة القرآنية . وقد ضاعت هذه المحاولات ولم تعلق بذاكرة أحد .

ثانيهما : انها عجزت حتى عن هذه المحاولة .

ويقودنا هذا الحديث إلى أن نلقى نظرة على المستوى الفكرى الذى بلغته قريش ، وهل كان يسمح لها بإجابة هذا التحدى أم لا ؟ .

والواقع ان الإجابة على هذا السؤال عسيرة كل العسر ذلك لأن الحياة الأدبية فى الجزيرة العربية أول ظهور الإسلام لم تؤرخ بعد تأريخا يسمح بالحكم عليها . فلا شك انه كان للعرب شعر ، وكان لهم نثر، وكانت لهم خطب ورسائل . ولكن أمة الصحراء لم تكن لتحفظ هذه الآثار إلا كما تحفظ الرمال خطوطا نقشت عليها .

وهناك طريقان لمعرفة المستوى الفكرى الذى كان عليه العرب عند ابتداء الدعوة الإسلامية :

أولهما — مراجعة النصوص الأدبية الثابتة من شعر ونثر التى خلفها العصر الأموى ، وهو أقرب العصور إلى العهد الفاصل بين الجاهلية والإسلام. وهذه نراها ممثلة فى دواوين الشعر المشهورة مثل نقائض جرير والفرزدق وشعر عمر بن أبى ربيعة وخطب الخلفاء (ليس منها نهج البلاغة المنسوب للامام على فهو كتاب متأخر) .. فهذه النصوص يمكن أن تعد حلقة فى

سلسلة التطور الفكرى ، إذا عدنا منها إلى الوراء قليلا ، وأحصينا على وجه الدقة مقدار التأثير الذى أضافه الإسلام إلى العقلية العربية، أمكننا أن نهتدى إلى ما يلقى ضوءا على هذه النقطة . وهذا الضوء يكشف لنا عن عقلية ناضجة بعض الشىء ، تستقيم نظرتها إلى الأشياء ، ويعلو ادراكها عن مستوى الطفولة إلى مستوى أكثر تماسكا وأصلب عودا ..

ثانيهما — وثانى الطريقين اللذين نسير فيهما لمعرفة مستوى الفكر العربى فى فجر الدعوة المحمدية هو القرآن نفسه . فقد كان يناقش ويجادل ويدفع عن نفسه . وكان يشتد ويحتد ويعلو صوته حتى يصافح وجه السماء . وما كان القرآن فى جداله لقريش يصل إلى هذه الدرجة من العنف الا لأنه وجد أمامه خصوما صامدين ، معاندين . ولو أنه وجد أمامه جيلا قد انحط ادراكه ، ولم يتجاوز دور الطفولة بعد، لسهلت قيادته ، ولأمكن ادخاله فى نطاق الدعوة فى يسر وسهولة . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . فقد أنفق الوحى ربع قرن إلا قليلا وهو يهاجم ويدافع هذه الآراء والنظريات السائدة فى الحجاز ، التى كانت تعتمد على أصول من العقائد الوثنية واليهودية والنصرانية .. كما كانت تستنير بما ينقله المسافرون عبر الصحراء إلى بلاد الامبراطورية البيزنطية وبلاد فارس .

وإذن فنحن إزاء مجتمع حى ، قادر على التفكير .. ترى ما الذى منعه

من أن يرد على تحـدى القرآن ؟! وما الذى أعجزه عن أن يبذل الجهد فى التقليد والمحاكاة أثناء حياة النبى .

لا شك انه العجز عن التشبع بالمعانى الجديدة التى كان يطرقها القرآن ؟ وهنا بعض المعجزة .

ولا شك انه العجز عن الوقوف على أسرار البلاغة القرآنيـة وطريقة تناول الآيات للمعانى التى وضعت لها وهنا باقى المعجزة .

— ٤ —

محاولات التقليد

ولكن هل فترت رغبة الناس بعد حياة النبى عن تقليد القرآن ؟ !

لقد شغلت هذه الفكرة — فكرة معارضة القرآن وتقليده — أذهان معاصرى النبى فلم يصلوا إلى شىء يقيم حجتهم .. فلما قاربت حياة النبى عليه السلام نهايتها ، وبدأت قبائل العرب تحس بوطأة القبضة الجديدة التى بسطت عليها ، والتى أخذت تبدل معالم حياتها . ورأت ان المقاومة المسلحة وحدها لم تكف لمنع هذا السلطان الجديد من أن يضمها تحت سيطرته ، فكرت فى أن تلجأ مع السيف إلى وسيلة أخرى ، وهى أن تنشئ لها أنبياء مثل هذا النبى الذى ظهر فى مكة . ومن هنا كانت حركة التنبؤ . وهى كما ترى تعتمد قبل كل شىء على نزعات قبلية ، وعاطفة وطنية تدفعها إلى عدم الخضوع لحكم المدينة ، لتنشىء هذه الزعامات ، وتطلق عليها اسم النبوة ، وليس ما يمنع من أن تصطنع لها وحيا ، وأن ينطق هذا الوحى بقرآن .

تنبأ فى هذه الفترة وهى العام التاسع والعاشر للهجرة حتى حروب الردة

مسيلمة الذى ظهر باليمامة فى بنى حنيفـة والأسود العنسى الذى تنبأ فى اليمن وطليحة بن خويلد الذى تنبأ فى قبيلة أسد وسجاح ذات العلم بالنصرانية التى ظهرت فى بنى تغلب ، وغيرهم .

فأما مسيلمة فقد زعم أن وحيا يهبط عليه من السماء يسمى « رحمٰن » ، وانه يهبط عليه فى الظلام لا فى وضح النهار ، وانه يقرئه قرآنا .

وقد روت الروايات عنـه وعن غيره قرآنا زعموا أنه أنشأه . ولا سبيل إلى الجزم بأن هذا الـكلام منسوب حقيقة لمسيلمة ، إذ ليس هناك ما يدعو إلى احتفاظ ذاكرة الرواة بهـذا السخف قرنين من الزمان حتى بدأ عهد التدوين ، وإنما هذا الـكلام الذى ينسب لمسيلمة ولغيره على أنه قرآنه هو ما تخيل المتأخرون من القصاص ان أمثال هؤلاء الثائرين يستطيعون إنشاءه معارضة للقرآن وتقليدا .

فمن هذا الذى نسب لمسيلمة انه كان يقول « يا ضفدع يابنت ضفدعين . نقى ما تنقين . نصفك فى الماء ونصفك فى الطين . لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين . . » وواضح طبعا أن هذا الـكلام ليس من لغة الجاهليـة فى شىء ، ومع هـذا فقد خدع عنه الجاحظ أو هو يسخر منـه حين يقول : لا ادرى ما الذى هيج مسيلمة حتى ساء رأيه فى الضفدع ..

مما قيـل على لسان مسلمة : (والباذرات زرعا ، والحاصدات حصداً ،

والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، اهالة وسمنا .. لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه والباغى فناوئوه الخ).

هذا هو مسيلمة ، وقد قصده طلحة النمرى ، وسأل عنه قومه قائلا :

— أين مسيلمة ؟ ! فصاحوا به أن يذكر أنه رسول الله . ثم قادوه اليه فحاوره قليلا ، وتبين له سخفه فقال له : أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر .

وأما وحى الأسود العنسى فكان ينزل به عليه ملك اسماه « ذا خمار » وكان رجلا فصيحا يجيد سجع الكهان إلا أن كلامه بطبيعة الحال ضاع كما ضاع غيره .

أما وحى طليحة فقد كان ينزل به عليه — فيما زعم — ملك اسماه ذا النون . ثم عدل عن ذى النون ، وقال لا بل هو جبريل . ولم يعرف شىء عن قرآنه إلا انه كان يعترض على السجود فى صلاة المسلمين ويقول صلوا قياما ، فإن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح ادباركم ! !

واما سجاح فقد ادعت قرآنا ، إلا أن وحيها صمت حين لقيت مسيلمة وتزوجته ، ودفع لها الصداق ان أعفى اتباعهما من صلاة العصر . وقد ظل بنو تميم وقتا غير قصير لا يصلون العصر ، فقبيح بمثلهم أن يضيعوا صداق بنتهم ! !

وهكذا ترى أن محاولات تقليد القرآن فى أواخر عهد النبوة وبعده بقليل قد أخفقت تماما .

■ ■ ■

فلما تقدم العهد بالإسلام ، ودخلت الأمصار المفتوحة تحت حكم المدينة ، وذابت فى الإمبراطورية الإسلامية مذاهب وعصبيات ونزعات لا أول لها ولا آخر . ودخلت فى الإسلام عقليات جديدة غير عقلية العرب تنبه هؤلاء المسلمون الجدد إلى بلاغة القرآن و إلى تحديه البلغاء . وليس هناك ما يمنع من أن يكون كثيرون قد حاولوا تقليد القرآن سراً ، إلا أننا لم نقف على شىء من هذا يصح الاطمئنان إليه . . وكل ما بين أيدينا روايات عن أشخاص اتهموا بمعارضة القرآن منهم ابن المقفع ولم تعزز هذه التهمة بذكر نصوص هذا القرآن المقلد .

فقد ذكر ابن قيم الجوزية والباقلانى أن ابن المقفع عند ما انتهى الى قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ » إلى قوله تعالى « وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » عدل عن إنشاء قرآنه وقال : هذا ما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله وترك المعارضة وأحرق ما كان قد اختلقه . ويقول الباقلانى ان قوماً ادعوا أن ابن المقفع عارض القرآن فى كتابه « الدرة اليتيمة » . ولم يجد

الباقلانى فيما أنشأ ابن المقفع بهذا الكتاب ما يصح أن يكون تقليداً للقرآن (١)

وكان الشاعر المعروف (المتنبى) قد تنبأ فعلا فى بادية السماوة ، وأنشأ كلاماً أسماه قرآناً منه قوله : والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، ان الكافر لفى اخطار ... امض على سننك ، واقف أثر من قبلك من المرسلين ، فان الله قامع بك زيغ من ألحد فى دينه وضل عن سبيله الخ ..

إلا أنه عدل عن هذه المحاولة ، وتفرغ لشعره فكان أشهر الشعراء .

■■■

ومن الذين اتهموا أيضا بهذه التهمة ، وهى محاولة محاكاة القرآن أبو العلاء المعرى فى كتاب « الفصول والغايات .. »

ومما ورد فى هذا الكتاب :

« سبحانك مؤبد الآباد هل للمنية نسب إلى الرقاد ؟ لا أتخيل إذا انتبهت أحدا من الأموات . وإذا هجعت لقينى قريب عهد بالمنية ، ومن قد فقد منذ أزمان . أسألهم فيجيبون ، وأحاورهم فيتكلمون ، كأنهم بحبل الحياة معلقون . لو صدق الرقاد لسكنت إلى ما يخبر عن سكان القبور ، ولكن الهجعة كثيرة الكذاب . »

ومما قاله أيضاً فى كتابه هذا يناجى ربه ويذكر والده فى قبره :

« أدعوك وعملى سيء ليحسن ، وقلبى مظلم لكى ينير . وقد عدلت عن المحجة إلى بنيات الطريق . وأنت العدل ومن عدلك أخاف ! يامن سبح له زرقة الأفق وزرقة الماء وحمرة الفجر وحمرة شفق الغروب ! وإن كان الدمع يطفى غضبك فهب لى عينين كأنهما غمامتا شتى (شتاء) تبلان الصباح والمساء ، واجعلنى فى الدنيا منك وجلا لأفوز بالآخرة فى الأمان .

---

(١) راجع كتاب ابن المقفع للأستاذ عبد اللطيف حمزة

وارزقنى فى خوفك بر والدى وقد فاد بره إهداء الدعوة له بالغدو والآصال . فاهد اللهم له تحية أبقى من عروة الجدب ، وأذكى من ورد الربيع ، وأحسن من بوارق الغمام ، تسفر لها ظلمة الجدث ويخضر أغبر السفاه ، ويأرج ثرى الأرض .. تحية رجل للقيا ليس براج ..»

وواضح من هذه المقتبسات أن أبا العلاء لم ينشىء لنفسه قرآنا ، يعارض به وحى السماء فهو هنا مؤمن عميق الإيمان : وان كان هذا لم يمنع من أن يحصى عليه مثل هذا الكلام :

« أقسم بخالق الخيل ، والريح الهابة بليل ، بين الشرط ومطالع سهيل ، ان الكافر لطويل الويل ، وان العمر لمكفوف الذيل ، تعد مدارج السيل ، وطالع التوبة من قبيل ، تنج وما أخالك بناج »

وقد ذكر الرافعى فى اعجاز القرآن : وتلك ولا ريب فرية على المعرى أراده بها عدو حاذق لأن الرجل أبصر بنفسه وبطبقة الكلام الذى يعارضه وما أراه إلا أعرف الناس باضطراب أسلوبه والتواء مذهبه وان البلاغة لا تكون مراغمة للغة أو اغتصابا لألفاظها وتوطينا لغرائبها كما يصنع .. الخ[1]

وذكر الدكتور طه حسين فى كتابه مع أبى العلاء فى سجنه[2] .

هل أراد أبو العلاء إلى معارضة القرآن فى الفصول والغايات كما ظن بعض القدماء ؟ نعم ولا . نعم ان فهمنا فى المعارضة مجرد التأثر ومحاولة المحاكاة. ان فهمنا من المعارضة أن أبا العلاء قد نظر إلى القرآن على أنه مثل أعلى فى الفن الأدبى فتأثره وجد فى تقليده كما يتأثر كل أديب بما يعجب به من المثل

---

(١) ص ١٨٩ (٢) ص ٢٤٦

الفنية العليا . ذلك شيء لا شك فيه . فأيسر نظر فى كتاب الفصول والغايات يشعرك بأن أبا العلاء حاول أن يقلد قصار السور وطوالها . وليس المهم أنه وفق فى هذا التقليد أو لم يوفق . بل من المحقق أن التوفيق لم يقدر له كما لم يقدر لغيره بل من المحقق أيضاً أنه لم يظفر إلا بمثل سجع الكهان. ولكن المهم أن هذه المحاولة ظاهرة ملموسة فى الكتاب وهى لا تضير الشيخ ولا تلزمه اثماً ولا حوباً.

وأنا لا أفهم من المعارضة الاستجابة للتحدى ومحاولة الاتيان بسورة أو سور مثل سور القرآن . فهذا خاطر ما أحسبه خطر لأبى العلاء . فقد كان أشد تواضعاً من أن تبلغ به الكبرياء الى هذا الحد . وقد كان أعقل من أن يطاول مالا سبيل إلى مطاولته ، وقد كان أحرص على الاحتياط والتحفظ من أن يعرض نفسه لمثل هذا الخطر العظيم .

■■■

وهناك آخرون غير هؤلاء الأدباء الثلاثة : ابن المقفع والمتنبى والمعرى ، اتهموا بمحاولة تقليد القرآن ومعارضته إلا أنهم لم يصلوا الى شيء إن صحت الروايات عنهم. والغالب أن هذه التهم كانت تلصق بهم لتفوقهم فى أساليب الانشاء وتملكهم نواصيها واعتناقهم لمذهب من المذاهب الفلسفية . وسنعرض بعد قليل لآراء بعض المتكلمين والفلاسفة من المسلمين فى أسلوب القرآن وسبب

إعجازه . . ولكننا الآن نريد أن نمضى إلى الأمام خطوتين فنذكر مثالين لنوعين آخرين من محاولة تقليد القرآن .

أحدهما سورة « النورين » التى يزعمون أنها من المصحف وقد أسقطها عثمان منه . والمثال الثانى الخطبة الإلهامية لمدعى النبوة فى الهند غلام أحمد صاحب مذهب القديانية .

أما سورة النورين التى يقولون عنها فهذا مثال منها :

« يأيها الذين آمنوا ، آمنوا بالنورين . أنزلهما يتلوان عليكم آياتى ويحذرانكم عذاب يوم عظيم . نوران بعضهما من بعض وأنا لسميع عليم . إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله فى آيات لهم جنات نعيم . والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدوا الرسول عليه يقذفون فى الجحيم . ظلموا أنفسهم وعصوا ولى الرسول (أى على بن أبى طالب) أولئك يسقون من حميم . إن الله الذى نور السماوات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة والرسل ، وجعل من المؤمنين أولئك من خلقة ، يفعل الله ما يشاء لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . قد مكر الذين من قبلهم برسلهم ، فأخذتهم بمكرى إن أخذى شديد أليم . الخ »

ومن هذه السورة ، وهو بيت القصيد من إنشائها

« يأيها الرسول بلغ إنذارى فسوف يعلمون . مثل الذين يوفون بعهدك إنى جزيتهم جنات النعيم . وإن عليا لمن المتقين »

« ولقد أرسلنا موسى وهارون بما استخلف ، فبغوا هرون ، فصبر جميل . فاصبر فسوف يبلون . ولقد أتينا لك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين . وجعلنا لك منهم وصيا (أى على بن أبى طالب) لعلهم يرجعون . إن عليا قانتاً بالليل ساجداً ، يحذر الآخرة ، ويرجو ثواب ربه . قل هل يستوى الذين ظلموا وهم بعذابى يعلمون »

وحسبنا هذا المقدار من السورة التى يزعم المستشرقون أنها سقطت من من القرآن ، وإن عثمان أهمل أمرها إهمالاً ، وكانت مثبتة فى مصحف علىّ ابن أبى طالب .

ولنلق نظرة على معناها ، فسنرى أنها أنشئت لغرض واحد ، وهو تأكيد معنى الوصى ، الذى يعد أساساً من أسس التشيع ، والوصى هو علىّ ، أى الذى أوصى النبى أن يكون خليفته من بعده . وقد عمدت هـذه السورة المنتحلة إلى التصريح ، فذكرت اسم علىّ وتحدثت عن زهادته وعبادته .

ولا تعد هـذه السورة من وثائق الشيعة ، وهم لا يتمسكون بها ، ولا يقفون عندها ، ففى كتاب الشيعة فى التاريخ[1] ، فصل عن مجمل عقائد الشيعة فيه أن الله « أنزل على نبيه المعجزة العظمى ـ القرآن الكريم ـ مصدقاً غير قديم كقدمه تعالى » . فهذا الكتاب الشيعى ، لا يذكر أن القرآن نقص سورة كما يدعى المدعون . وغاية ما يذكر الشيعة فى تأييد رأيهم القائل بأن النبى عليه السلام أوصى أن يكون خليفته علىّ بن أبى طالب ، هو تفسيرهم للآية « يَـٰأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ . وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ » فقد ذكر الفخر الرازى أن هـذه الآية نزلت فى فضل علىّ بن أبى طالب . وذكر الزمخشرى أن الآية « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا » إنما نزلت فى علىّ بن أبى طالب وإذن فغاية ما يعتمد عليه الشيعة فى إثبات الإمامة لعلىّ هو تفسير لبعض آيات واردة فى صلب المصحف الذى بين أيدينا . وهو تفسير فيه خلاف إذ

(١) للشيخ محمد حسين الزين طبعة صيدا .

النص غير صريح ، وإنما يعتمد فى التفسير على رواية بعض أحاديث تؤيد رأيهم .

فسورة النورين التى نحلها أحد الروافض (وهم فرقة من غلاة الشيعة) وتمسك بها المستشرقون ، إنما أُنشئت لتأييد دعوى سياسية . ومما يستوقف النظر فيها أن صاحب هذه السورة حاول أن يقلد القرآن ، وأجهد نفسه فى هذا إجهاداً لا شك فيه . حتى ليمكننا أن نقول ان سورة النورين أقرب صورة مزورة من القرآن . ولكن إمعان النظر فيها وترديد جُملها يشعرك بالخلل فى تركيب ألفاظها . فإذا أمعنت النظر فى الجملة مثلا :

« ولقد أتينا لك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين » . ترى لفظ (لك) قلقاً فى مكانه لا يكاد يستقر . وتجد نغم الجملة كله فاتراً هامداً ، لا ينتفض بهذه الحياة التى تنتفض بها آيات القرآن . وكذلك تستطيع أن تدقق النظر فى بقية الجمل . فستظفر بما يريبك ، ثم بما يسخطك .

■ ■ ■

والمثال الأخير الذى نريد أن نختم به هذا الفصل هو قرآن غلام أحمد . وهذا الشخص هو آخر المتنبئين الذين يتحدثون عن صلتهم بوحى السماء ، وانه ينزل عليهم قرآناً كما كان ينزل القرآن على محمد عليه السلام .

وغلام أحمد هذا ، هندى ولد فى مدينة قديان منذ قرن و بضعة أعوام . وقد ادعى أن الوحى ينزل عليه فى عام ١٨٧٦ م ، فأذاع فى الهند بياناً قال فيه

إنه المسيح المنتظر ، وان له كتاباً منزلا . وقد ظهرت آية بيانه التى يدعيها فى عام ١٩٠٠ ، عندما ألقى على أتباعه فى مطلع هذا القرن ما أسماه الخطبة الإلهامية ، حاول فيها أن يقلد القرآن ، فألقاها باللغة العربية ، وسجع فيها ، وسرق ، ولكنه انتهى الى « الهام » يضحك الثكلى ، وقرآن إذا تلاه إنسان لم يتبع قرآنه . . اللهم إلا طائفة من أهل الهند تابعته متأثرة بنشاطه ونشاط أتباعه فى الدعاية . والهند ميدان عجيب للعقائد والنحل ، فلا يستغرب أن يكثر من أفرادها من يدين بالقديانية ، ويحملها على نصوص من القرآن أسىء فهمها وتأويلها . ولا نريد أن نناقش متنبئ قديان ، ولكن نعرض طائفة من (قرآنه) الذى قال عنه فى فاتحته :

« هذا هو الكتاب الذى ألهمت حصة منه من رب العباد ، فى يوم عيد من الأعياد ! ! »

يقول « أرأيتم ان كنت من عند الله ، ثم كذبتمونى فما بالكم أيها المكذبون . . انكم ترون كيف تنصر الناس وارتدوا من دين الله . ثم تقولون ما جاء مرسل من عند الله ، ما لكم كيف تحكمون . . فأنعم الله على هذه الأمة بإرسال مثيل عيسى ، وهل ينكر بعده إلا العمون وكان عيسى علماً لبنى إسرائيل ، وأنا علم لكم أيها المفرطون »

وقد مات غلام أحمد سنة ١٩٠٨ وترك من ورائه خليفة ، ثم خليفة

وكانت آية هذا المتنبئ الحديث خطبته الإلهامية ، وكانت هذه الخطبة فى ذاتها دليل كذبه ، فحسب أى إنسان يعرف العربية أن يقرأ لغواً مثل قول غلام أحمد بعد أن يورد الآية « وَمَرْيَمَ ٱبْنَةَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا » هذه بشارة بأنه سيكون فى هذه الآية الإسلامية رجل فى درجة مريم الصديقة ، ثم ينفخ فيه روح عيسى ، أى ان الرجل ينتقل من صفاته المريمية إلى صفاته العيسوية فكأنما كينونته المريمية أنتجت كينونته العيسوية ، وبهذا المعنى يسمى ذلك الرجل ابن مريم .

حسب الإنسان أن يقرأ كلاماً كهذا ، لكى لا يدرك فقط أنه فقد ميزة البلاغة ، ولكن يسرع فيدرأ عن نفسه التفاهة الكريهة التى تهب عليه منه

ولكنا مع هذا نرى كيف صنع القرآن بخيال هذا الرجل . وكيف حسب أنه إذا جمع ألفاظاً مما استعمل القرآن وضم بعضها إلى بعض يستطيع أن يصنع قرآناً . فقوله مثلا « وقد أوحى إلىّ من ربى قبل أن ينزل الطاعون أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا » يدل على مقدار تأثير النغمات والألفاظ القرآنية على ذهنه . فألفاظ « قد أوحى » و « اصنع الفلك بأعيننا » منتبهة من آيات القرآن . ولكنه ضم بعضها إلى بعض فى تركيب غير محكم ، وأضاف إليها كلمة الطاعون . ثم جلس يستنشق نفساً طويلا ، ويقول هذا هو قرآنى ! !

لفظ ومعنى

« الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى
تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم »

— ١ —

موضوع القرآن

قال ابن خلدون فى مقدمته : إن صناعة الكلام نظما ونثرا إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى . وإنما المعانى تبع لها وهى أصل . . . فالمعانى موجودة عند كل واحد ، وفى طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا تحتاج إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة . . واللفظ بمثابة القوالب للمعانى . فكما أن الأوانى التى يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد فى نفسه ، وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء . كذلك جودة الألفاظ وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه .

ولو أننا جارينا ابن خلدون فى مذهبه هـذا ، وجعلنا المكان الأول للبلاغة فى الألفاظ لا فى المعاني ، إذاً لقلنا ان القرآن معجز لأنه صاغ معانيه صياغة يعجز عن الإتيان بمثلها الناس .

ولا نحسب الأمر كذلك ، فالقرآن معجز بلفظه ومعناه إن لم نقل انه معجز بمعناه أكثر مما هو معجز بلفظه . . ولقد ضرب ابن خلدون مثلا وقاس عليـه الألفاظ والمعانى . فقال اذا أردت أن تشرب ، فاشرب فى آنية الذهب لا آنية الخزف ، فالماء واحد ولـكنه يمتاز فى تلك بهاء منظره وطابع الترف الذى يشع منـه . . ولو أن ابن خلدون كان من سكان القاهرة فى هذا العصر ، وكان يسكن حى عابدين ، ويشرب من ماء النيـل ويعتاد عليـه مذاقه ، ثم زار كاتب هذه السطور فى حدائق القبة وقدم له هذا المـاء الذى يخرجونه من الأرض ملح المذاق . . إذن لتأذى ، ولما صبر عليـه ، ولعدل عن رأيه أن الماء واحد فى نفسه . . فكما يختلف مذاق الماء فى مدينـة واحدة هى القاهرة ، كذلك يختلف المعـنى فى شخص عن شخص . وقـد وفق ابن خلدون فى مقدمته إلى معـان اجتماعية ونظرات فلسفية ، كانت فى رأسه وحده ، واستطاع هو دون غيره الإهتداء اليها . . ولو أنها كانت فى رؤوس الناس جميعا ، إذن لما امتاز هو عن غيره من المؤلفين ، بل ربما كان له أنداد فى ثروة الألفاظ وفى المقدرة على التعبير يساوونه ، إن لم يزيدوا عليه .

معانى القرآن إذن مصوغةً فى الألفاظ التى عبر بها القرآن ، هى التى عجز الناس عن ابتكار مثلها . ولئن صح لبعض المتكلمين أن يختلفوا فى مراتب الفصاحة القرآنية وهل القرآن كله فى مرتبة واحدة من الفصاحة ، فهم لا يختلفون فى أن الأهداف التى رمى اليها القرآن ، والمعانى التى عبر عنها هى دستور الحياة الإنسانية الذى لا يأتيه نقص ، ولا يتطرق اليه قدم . دستور صالح للعمل به فى كل مجتمع وفى كل زمن .

قال القاضى أبو بكر الباقلانى : انه لا تفاوت فى فصاحة أجزاء القرآن ، وأن كل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا ، وأن كل ما فى القرآن على أرفع درجات الفصاحة . ولكن القشيرى (أبا نصر) يرى غير رأى أبى بكر ويقول : لا ندعى أن كل ما فى القرآن على أرفع الدرجات فى الفصاحة . وعلل بعض القدماء السبب فى تفاوت الفصاحة القرآنية بأنه لو جاء القرآن فصيحاً فى كل جزء من أجزائه لكان على غير النمط المعتاد ليتم ظهور العجز عن معارضته ، ولا تقول قريش مثلا : أتيت بما لا قدرة لنا على جنسه ، كما لا يصح للبصير أن يقول للأعمى قد غلبتك بنظرى لأن الأعمى يرد عليه بقوله إنما تتم لك الغلبة لو كنت قادراً على النظر وكان نظرك أقوى من نظرى ، وأما اذا فقدت العينين وهما أصل النظر فكيف تصح منى المعارضة !

وربما كان هذا الدفاع الذى ذكره القدماء عن تفاوت الفصاحة القرآنية محتاجا بدوره الى دفاع لما يشوبه من تكلف واضح . وذلك أن من عالج فن الإنشاء يرى أسلوب الأداء يتفاوت بحسب الموضوع الذى يعبر عنه . فانا حين أقرر حكماً من الأحكام أضطر الى نوع من الإيجاز ، واختيار طائفة معينة من الألفاظ لا اعدل عنها . وحين أهاجم عدوا ، أو أصف منظراً أخرج عن نطاق الألفاظ المحدودة والمعانى المحصورة الى أفق أوسع يعمل فيه الخيال وتلتهب فيه العاطفة . وكذلك الشأن فى القرآن ، فآية المواريث مثلا تضمنت طائفة من الأرقام والتقسيمات لا مجال للعاطفة فيها لأنها حكم من الأحكام .. أما قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » .

فهذه الآية بما تضرب من مثل عجيب ، وما تتضمن من معنى خالد تثير فى النفس طائفة من الاحساسات والانفعالات ، كما تحرك فى الذهن طائفة من الآراء والأفكار والتأملات لا سبيل الى حدها .

الخلاف الذى نراه إذن فى أسلوب هذه الآية ، وفى أسلوب آية أخرى من آيات التشريع انما يرجع إلى الموضوع فى ذاته ، لا إلى طريقة الأداء . ومن هنا يفهم قول القاضى أبى بكر « بعض الناس أحسن إحساساً له من بعض » ذلك أن الصورة التى ترتسم فى الذهن وفى النفس عن معنى الآية هى التى توضحها وتقربها . وهنا ينبغى أن نكرر المعنى الذى سبق أن ذكرناه وهو أن كل كلمة فى آية من آيات القرآن ، إنما وضعت فى مكانها أحسن وضع وانه لو حدث أن بدلت هذه الكلمة بغيرها إذن لما اتسق نظم الآية ، ولأحس القارئ بأن أمراً حدث فى الآية .

ذكر السيوطى فى تعريف القرآن (ان القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نُظُم التأليف متضمناً أصح المعانى من توحيد الله تعالى وتنزيهه فى صفاته ودعائه الى طاعته و بيان لطريق عبادته من تحليل وتحريم وحظر و إباحة ، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر و إرشاد الى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساويها ، واضعاً كل شىء منها موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه . ولا يتوهم فى صورة العقل أمر أليق به منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن مضى ، وعائد منهم منبئاً عن الكوائن المستقلة والأعصار الآتية من الزمان ، جامعاً فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك آكد للزوم ، وما دعا إليه ، وأنبأ عن وجوب ما أمر به ونهى عنه)

والسيوطى هنا يرى الاعجاز يشمل المعنى فى اللفظ الذى أدى به ، وهو قول صواب .

■ ■ ■

وقد عرف الأستاذ فريد وجدى مقاصد القرآن بقوله « القرآن وحى إلهى نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيراً وبشيراً . وعقيدتنا معشر المسلمين أنه الكتاب الجامع لأشتات الحكم ومتفرقات الأصول . وأنه فيه خلاصة سائر الكتب السماوية المتقدمة وأنه جاء بالناموس الأعظم لكمال الحياتين الدنيوية والأخروية . وأنه آخى بين طبيعتى الإنسان الجسدية والروحية ، وأنه أنزل للعالمين أجمعين وروعيت فيه مصالحهم على قسطاس مستقيم ولا جرم أن كتابا هذا شأنه لا بد من أن يكون رامياً إلى مقاصد ومتوخياً فى تعاليمه دستوراً . ولا بد أن يكون قد وعد وأوعد وبشر وأنذر ، ورغب ونفر ، وبنى وهدم ، وقوى ووهن ووصل وقطع ، وسلك لكل ذلك مسالك خاصة أدته إلى المكانة التى بلغها فى نفوس الآخذين به قديماً وحديثاً (١) .. »

■ ■ ■

وذكر الشيخ الخضرى فى تاريخ التشريع الإسلامى « الكتاب هو القرآن وهو أجل من أن يعرف »

ثم ذكر فى نفس المصدر : اشتمل القرآن على أنواع من الأعمال كلف بها العباد .

الأول معاملة بين الله والعبد وهى العبادات التى لا تصح إلا بالنية ، ومنها عبادات محضة وهى الصلاة والصوم . وعبادة مالية اجتماعية وهى الزكاة

---

(١) مقدمة المصحف المفسر ص ٩٨

وعبادة بدنية اجتماعية وهى الحج . وقد اعتبرت هـذه العبادات الأربع بعد الإيمان أساس الاسلام

الثانى معاملة بين العباد بعضهم مع بعض وهى أقسام :

(ا) مشروعات لتأمين الدعوة وهى الجهاد

(ب) مشروعات لتـكوين البيوت وهى ما يتعلق بالزواج والطلاق والأنساب والمواريث

(حـ) مشروعات لطريق المعاملة بين الناس من بيع و إجارة وغير ذلك وهى المعروفة بالمعاملات .

(ء) مشروعات لبيان العقوبات على الجرائم وهى القصاص والحدود

■ ■ ■

وعرف المرحوم الشيخ طه حبيب القرآن بقوله :

« القرآن هو اللفظ العربى المنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه ، المتواتر . فالمنزل هو اللفظ المقروء .. » وقال عن الحديث القدسى : « أما الحديث القدسى فهو ما أسنده النبى صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى على لسان جبريل عليـه السلام . ولا يلزم أن يكون متواتراً ، ولا هو متعبد بتلاوته ولا متحدى به » وفرق بين كلام الله وبين القرآن بقوله : « أما كلام الله الذى هو صفة له عز وجل منافية للسكوت

والآفة ، فليس من جنس الحروف والأصوات ، ولا يختلف إلى الأمر والنهى والاخبار ولا يتصف بالماضى والحال والاستقبال إلا بحسب التعلقات والاضافات . . وجملة القول ان المنزل والمقروء ليس هو الصفة القديمة كما هو ظاهر[١] »

■ ■ ■

وقسم هرشفلد (Hirschfield) القرآن حسب موضوعه إلى أربعة أقسام :

(١) — تبليغ .
(٢) — قصص .
(٣) — وصف .
(٤) — تشريع .

وربما كان هذا التقسيم أدنى تقسيم معروف إلى الايجاز والصواب .

وقد بذل العلامة جول لاپوم (٢) جهدا كبيرا محمودا فى ترتيب آيات القرآن حسب الموضوعات التى عرضت لها . .

(١) فتاوى مجلة الأزهر المجلد الرابع ص ١٩٨

(٢) نقل هذا الترتيب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى وطبعته مطبعة الحلبى طبعا متقنا .

— ٢ —

حوار وفروض

تلك هى المعانى التى طرقها القرآن ، وعلى أساسها ، وعلى أساس أسلوبه فى أدائها يقوم اعجازه مضافا إليها ما أنبأ به من أخبار الغيب . وسنتكلم فى فصل خاص من هذا الكتاب عن نظر المسلمين المتأخرين إلى أجزاء هذه المعانى وكيف فسروا بعضها ، واختلفوا فى هذا التفسير ، وكان اختلافهم هذا منشأ الفرق الإسلامية ، وأهم سبب من أسباب نشأة علوم الكلام التى استندت عليها الفلسفة الإسلامية كلها .

إلا انا نريد أن نصل البحث الماضى بذيل له هو هذا المثال الغريب الذى ساقه ابن الراوندى ليوضح به مذهبه فى الإعجاز ، وحوار اثنين من الباحثين حوله . ثم هذا الرأى الذى قال به النظام — أحد أئمة المعتزلة — ورد السيوطى عليه .

قال أبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندى فى كتاب له اسمه الفريد أو الفرند : ان المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذى تحدى به

النبى ، فلم تقدر العرب على معارضته . فيقال لهم : اخبرونا لو ادعى لمن تقدم من الفلاسفة مثل دعواكم فى القرآن فقال : الدليل على صدق بطليموس أو إقليدس ان اقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه . أكانت نبوته تثبت ؟ .

وقد أورد الرافعى هذا القول فى كتابه اعجاز القرآن و بعد أن سفه صاحب الرأى وأقذع فى شتمه قال : (فاعجب لهذا الجهل الذى يكون قياسا من أقيسة العلم واعجب للكلام الذى يقال فيه : إن هذا كتاب وذلك كتاب فكلاهما كتاب . ولما كانا كذلك فأحدهما مثل الآخر ولما كان أحدهما معجزا فالثانى معجز لا محالة . وما ثبت لصاحب الأول يثبت بالطبع لصاحب الثانى . وما دمنا نعرف أن صاحب الثانى لم تثبت له نبوة فنبوة صاحب الأول لا تثبت . لعمرى أن مثل هذه الأقيسة التى يحسبها ابن الراوندى سبيلا من الحجة و باباً من البرهان لهى فى حقيقة العلم كأشد هذيان عرفه الأطباء قط . و إلا فأين كتاب من كتاب وأين وضع من وضع وأين قوم من قوم وأين رجل من رجل . ولو أن الإعجاز كان فى ورق القرآن وفيما يخط عليه لكان كل كتاب فى الأرض ككل كتاب فى الأرض . ولاطرد ذلك القياس كله على ما وصفه كما يطرد القياس عينه فى قولنا ان كل حمار يتنفس وابن الراوندى يتنفس فابن الراوندى يكون ماذا ؟ » .

ويظهر أن المرحوم الرافعى كان مهتاج الأعصاب وهو يرد على ابن الراوندى ، ذلك ان هذا العالم القديم (توفى فى نهاية القرن الثالث الهجرى) يقول فى عبارة هادئة إنه لا يكتفى أن يعجز العرب عن محاكاة القرآن لكى يكون القرآن معجزا ! .. ويكون صاحبه نبيا . وإلا فلو أن عالم رياضة أو صاحب فلسفة أتى بنظرية يعجز غيره عن الإتيان بمثلها هل يكفى هذا لأن يدعى صاحب النظرية النبوة .. وذكر رجلين من أعلام الفكر القديم هما بطليموس واقليدس ولكلا الرجلين ما يعد إلى اليوم قمة الباب الذى ألف فيه .. ومع هذا فلا سبيل لأن يصدقهما أحد إذا ادعيا أو ادعى واحد منهما النبوة !

وكان ينبغى للرافعى أن ينقض هذا الكلام بكلام من نوعه وفى اتجاهه ثم يصب عليه ما شاء من الشتائم . ولكنه ذكر الرد الذى أثبتناه وختم رده بمقتبسات من رد المعرى عليه ، وأسمى رد المعرى بصقا على كتب ابن الراوندى بمقدار دلو من السجع .. ولا ننسى أن المعرى الذى احتج الرافعى برده على ابن الراوندى لم يسلم من قلم الرافعى ، فقد أهال عليه بعد صفحة واحدة أكواما من التراب[1] .

---

(١) راجع صفحات ١٨٥ إلى ١٨٩ من كتاب اعجاز القرآن للرافعى .

وقد تصدى الأستاذ عباس العقاد لهـذه النقطة من كتاب الرافعى فى كتابه ساعات بين الـكتب فقال قولا سديدا نجمله فيما يأتى :

ما هى المعجزة ؟ هى حادث خارق لنواميس الكون التى يعرفها الإنسان مقصود به اقناع المفكرين بأن صاحبها مرسل من قبل الله إذا كان يأتى للناس بعمل لا يقدر عليه غير الله . وإنما الأساس فيها والحـكمة الأولى أنها تخرق النواميس المعروفة وتشذ عن السنن المطردة فى حوادث الـكون ، وعلى هذا الوجه يجب أن يفهمها المؤمنون بها والمنكرون لها على السواء فيخطىء المؤمن الذى يحاول أن يفسر المعجزة تفسيرا يطابق المعهود من سـنن الطبيعة لأنه بهذا التفسير يبطل حكمتها ويلحقها بالحوادث الشائعة .

المعجزة فى لفظها العربى قوامها الإعجاز أى الاقنـاع بأن فاعلها هو الله لاسواه ، ومن ثم يكون الرجل الذى ساقها مساق الدليل رسولا من عند الله .

ولا يكفى الإعجاز وحده دليلا على الرسالة الإلٰهية لأن الإعجاز قد يكون لغير براعة فى الفعل المعجز ، وقد يكون لعمل من أعمال البشر التى لابد فيها من رجحان واحـد على الآخرين . مثال ذلك — جاء إليك صبى يتهجى وكتب لك سطرا من خطه ، ثم طلب إليك أن تكتبه أنت بيدك كما كتبه هو غير مستعين برسم ولا تصوير ، فأنت لا محـالة عاجز عن محاكاة ذلك الخط أتم محاكاة ، وغـيرك أيضا عاجزون عن إجابة ذلك التحدى الساذج

الصغير ، فماذا ترى فى دعوى الصبى إذا هو ادعى النبوة أو ما شاء له عقله الصبيانى المخدوع ؟ هذه محاكاة يعجز عنها أقدر القادرين فى كتابة الخطوط لا لحسن رائع فى الخط المحاكى ، ولا لزيادة فى جهة الصنعة وطاقة التجويد ، ولكن لأن يد الصبى غير سائر الأيدى ومعرفته بالخط غير سائر المعارف ، فهو يكتب خطا لا يحكيه أحد ويفعل فعلا يعجز عنه الآخرون . فهل ترى هذا الإعجاز مما تنهض به الحجة وتعنو له العقول !؟ أو هل ترى أن مجرد العجز هنا دليل على انتصار الصبى القادر وخذلان المقلدين العاجزين؟

ثم عرض لما ذكر ابن الراوندى فى الإعجاز ورد عليه بقوله :

كلام ابن الراوندى هذا ظاهر المغالطة ، لأن اقليدس لم يخترع الحقائق التى أوردها فى كتابه وليس فى طاقته هو نفسه أن يبتدع كتابا آخر ، أو يزيد قضية واحدة على تلك القضايا . فالعجز هنا يشمل اقليدس كما يشمل الآخرين والدعوى لا تظهر له فضلا ، غير فضل الاهتداء والإشارة إلى الحقائق الموجودة قبله ، والتى لا يدله هو فى إيجادها بأى معنى من معانى الإيجاد[1] .

■ ■ ■

ذلك قول ابن الراوندى فى الإعجاز والرد عليه . وأما « النظام » فله مذهب آخر ، شائع معروف وهو مذهب الصرفة .

---

(١) ص ٧ وما بعدها من كتاب ساعات بين الكتب للعقاد .

فى كتاب الاتقان : زعم «النظام» «أن إعجاز القرآن بالصرفة ، أى أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم ، وكان مقدورا لهم ، ولكن عاقهم أمر خارجى فصار كسائر المعجزات» .

ورد السيوطى بقوله : وهذا قول فاسد بدليل : «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ .. الآية . فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم ، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى . وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره . هذا مع أن الاجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزا ، وليس فيه صفة إعجاز ، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله !! وأيضا يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى وخلو القرآن من الإعجاز ، وفى ذلك خرق لاجماع الأمة . إن معجزة الرسول باقية ، ولا معجزة له باقية سوى القرآن» .

وقال القاضى أبو بكر : «ومما يبطل القول بالصرفة ، انه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا ، وإنما يكون بالمنع معجزا ، فلا يتضمن الكلام فضيلة غيره فى نفسه» .

ولا يكتفى النظام بهذا القول فى الإعجاز ، وهو أن سببه صرف الله الناس عن محاكاته ، ولكن له آراء فى أسباب الإعجاز .. ، كقوله بأن إعجاز القرآن إنما سببه ما فيه من اخبار عن الغيوب ، كالإخبار عن عالم

الغيب ، وكالإخبار عن أحداث مستقبلة كقوله تعالى : « ألم . غُلبتِ الرُّومُ فى أَدْنى الأَرْضِ وهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فى بِضْعِ سِنِين » وقوله : « قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ، فإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَنا ، وإِنْ تَتَوَلَّوا كما تَوَلَّيتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً » . واخباره بما فى نفوس قوم ، وبما سيقولونه . الخ .. أما التأليف والنظم والأسلوب فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله صرفهم عن الإتيان بمثله[1] » .

■ ■ ■

ولم يكن النظام — ابراهيم بن سيار بن هانئ — ضعيف العقل ، ولا ممن يغمز جانب إيمانهم بسهولة ، فهو حجة المعتزلة وأشهر أئمتهم وقد مات شابا فى سنة ٢٢١ إذ لم يزد على السادسة والثلاثين ، ومع هذا كان إماما من أئمة الفكر الإسلامى . وقد أثارت آراؤه هذه وغيرها من الآراء المتصلة بفروع الدين لغطا شديدا متصلا فى محيط المتدينين والفلاسفة . وقد تزعم النظام مدرسة من مدارس المتكلمين الإسلاميين وحسبه أن تلميذه الجاحظ . . كما أنه إلى جانب آرائه فى الدين كان عالما مجربا ، يغرم بالحصول على النتائج من وراء المشاهدة العملية .

■ ■ ■

(١) ضحى الاسلام الجزء الثالث ص ١٢٥

وكما رو ينا رأى ابن الراوندى ورأى النظام فى إعجاز القرآن والرد عليهما لا نرى بأسا من أن نورد طرفا مما قال فى هـذا الباب أحد قدماء الباحثين المحافظين وهو القاضى أبو بكر الباقلانى ، فقد ذكر من بحوثه عن إعجاز القرآن أن وجه إعجاز القرآن ما فيه من النظم والتأليف والترصيف وانه خارج عن جميـع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب ، ومباين لأساليب خطاباتهم .. قال : « ولهذا لم يمكنهم معارضته . ولا سبيل الى معرفة اعجاز القرآن من درس أصناف البديـع التى أودعوها فى الشعر ، لأنه ليس مما يخرق العادة ، بل يمـكن استدراكه بالعـلم والتدريب والتصنع به كقول الشعر ووصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق فى البلاغة . . فأما نظم القرآن فليس له مثال يحتذى ولا إمام يقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا » . قال : « ونحن نعتقد أن الإعجاز فى بعض القرآن أظهر وفى بعضه أدق وأغمض » .

ونرى من عبارة القاضى أبى بكر أنه فهم المعجزة على النحو الذى فهمه الأستاذ العقاد فى العبارة التى سقناها عنـه فهو يرى أن محاولة التدليل على إعجاز القرآن بأن فيه هـذه الاستعارة البارعة أو هذا الخيال الرائع عبث لا طائل تحته ، لأن هذه المقاييس إنما يقاس بها كلام الناس لا كلام الإله . وكلام الناس مع تفاوته فى الدرجات يحصل جيده بالعـلم والتدريب . وليس شأن القرآن كشأن كلام الناس .

مصحف عثمان

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »

— ١ —

التدوين بين النبي والصحابة

انتهينا فى الفصل الذى عقدناه فى كتابنا الماضى عن « النبى والقرآن » إلى أن النصوص التى بين أيدينا لا تقطع بأن القرآن كان يدون فى العهد المكى فقد استمر الوحى ينزل على رسول الله عشر سنين فى هذه الفترة (باستثناء مدة انقطاعه فى أول البعثة) . ولم تكن ظروف النبى فى مكة لتسمح له بحالة من الاستقرار تساعد على التدوين المنتظم . وكل ما رجحناه هو أن صحفاً معينة كانت تكتب من القرآن ، ويتداولها المسلمون سراً ، ليتدارسوها فى بيوتهم بعيداً عن أعين قريش ، وعن أذاها المتصل . .

ونعود الآن إلى النصوص نفسها التى بين أيدينا لنرى ماذا كان عليه الحال فى العهد المدنى ، وكيف كان يدون القرآن ؟ . . .

■ ■ ■

ورد فى الاتقان عن زيد بن ثابت : قال . . «قبض النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع فى شىء» .

وعن زيد بن ثابت أيضاً قال : «كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع» .

قال الخطابى : «إنما يجمع النبى صلى الله عليه وسلم القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر» . .

■ ■ ■

وأخرج مسلم فى صحيحه من حديث أبى سعيد قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن»

وعلق السيوطى على هذا الحديث بقوله : «لاينافى ذلك، لأن الكلام فى كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة . . وقد كان القرآن كتب كله فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن غير مجموع فى موضع واحد ولا مرتب السور» .

■■■

وقال الحارث المحاسبي فى كتاب فهم السنن : « كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته ، ولـكنه كان مفرقاً فى الرقاع والأكتاف والعسب . فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً . وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت فى بيت رسول الله فيها القرآن منتشرا فجمعها جامع وربطها بخيط لا يضيع منها شىء » . .

قال صاحب هذه الرواية : «فإن قيل كيف الثقة بأصحاب الرقاع وصدور الرجال ، قيل لأنهم كانوا يندبون عن تأليف معجز ، ونظم معروف قد شاهدوا تلاوته من النبى عشرين سنة فـكان تزوير ما ليس منه مأموناً . وإنما كان الخوف من ذهاب شىء من صحفه » .

■■■

قال السيوطى : «وقد تقدم فى حديث زيد أنه جمع القرآن من العسب واللخاف . وفى رواية والرقاع . وفى أخرى وقطع الأديم . وفى أخرى والأكتاف . وفى أخرى والأضلاع . وفى أخرى والأقتاب والعسب» (جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض . واللخاف جمع لخفة وهى الحجارة الدقاق)

وقال الخطابى : «صفائح الحجارة ، والرقاع : جمع رقعة وقد تكون من

جـــلد أو ورق أو كاغد . والاكتاف جمع كتف وهو العظم الذى للبعير ليركب عليه» .

■■■

وفى كتاب تاريخ القرآن للشيخ الزنجانى[١] .

«كان الكتبة يكتبون الآيات فى العسب واللخاف والرقاع ، وأحيانا فى الحرير وقطع الأديم والاكتاف على عادة العرب بالكتابة على تلك الأشياء . وكان تطلق عليها الصحف . وكانت من تلك الصحف تكتب لرسول الله (ص) وتوضع فى بيته» . قال محمد بن اسحق فى الفهرست: «وكان القرآن مكتوبا بين يدى رسول الله فى اللخاف والعسب والاكتاف الإبل» . وروى البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال : «تتبعت القرآن أجمعه من اللخاف والعسب وصدور الرجال» .

روى العياشى فى تفسيره فى ذيل رواية له : «قال على عليه السلام : إن رسول الله أوصانى إذا واريته فى حفرته أن لاأخرج من بيتى حتى أؤلف كتاب الله . فإنه فى جرائد النخل وفى اكتاف الإبل» .

وفى رواية على بن ابراهيم عن أبى بكر الحضرمى عن أبى عبد الله جعفر ابن محمد قال : «إن رسول الله قال لعلى : يا على إن القرآن خلف فراشى فى

---

(١) ص ٢٢

الصحف والحرير والقراطيس . فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة» ، وانطلق علىّ عليه السلام فجمعه فى ثوب أصفر ثم ختم عليه[١]» .

هذه هى جملة الروايات التى تتحدث عن صلة رسول الله بتدوين القرآن وكلها كما نرى لم تتعرض للتدوين فى الفترة المكية ، والراجح أنها كلها تشير إلى الفترة المدنية من حياة النبى للأسباب التى ذكرناها ..

ثم إننا نرى خلافا واضحا بين هذه الروايات . فمنها من ينكر أن القرآن جمع فى عهد النبى . ومنها من يقول إن القرآن كان فى صحائف وراء فراش النبى . ومنها ما يمعن فى التفاصيل فيقول ان هذه الصحائف جمعت فى خيط أو ان على بن أبى طالب حزمها فى ثوب أصفر !!

والذى نراه ان النبى عليه السلام كان يبيح للمسلمين كتابة القرآن لمن يستطيع منهم الكتابة . وأنه كان يأمر كتابه بتدوينه . ولكن التدوين لم يكن وفق نظام مقرر بحيث يطمأن إلى أن النبى خلف القرآن كله مدونا مرتب السور مجموعا وسنرى فيما بعد أن القرآن الذى نزل رفع بعضه بالنسخ ، وقد أشارت روايات مما ذكرنا إلى هذه النقطة فقالت إن القرآن لم يجمع لما كان النبى يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته .

---

(١) الأستاذ عبد الله الزنجانى من كبار مجتهدى الشيعة المحدثين ونراه هنا يورد روايات من مصادر شيعية .

وينبغى هنا أن نفرق بين التدوين المجرد ، و بين الجمع فأما التدوين فهو التسجيل دون اتباع نظام ثابت . وأما الجمع فهو تأليف مصحف وترتيبه .

■■■

ولنقل كلمة عن الصحابة الذين عنوا بتدوين المصحف فقد وردت روايات كثيرة منها رواية الفهرست التى تقول ان الذين جمعوا القرآن فى عهد النبى وأكملوه بعده هم : على بن أبى طالب ، وسعد بن عبيد ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأُبى بن كعب ، وعبيد بن معاوية ، ومن أسماء الفهرست أبو زيد ثابت بن زيد (وهذان الأخيران غير معروفين على وجه التحقيق ، ووردت عنهما احتمالات فى أسد الغابة .)

وفى البخارى أن جماع المصحف على عهد النبى أربعة : أبى بن كعب ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد .

ويزيد الإتقان على هؤلاء ويبدل غيره فى الأسماء ، ولا تكاد الروايات تتفق على واحد منهم .

وسنرى عند ما نتكلم عن الجهود التى بذلها زيد بن ثابت لجمع المصحف أن هذه الروايات عن وجود مصاحف فى عهد النبى لا تستقيم مع منطق التاريخ. فلو أنها كانت كذلك إذن لتناسخها المسلمون ، ولما اضطرب عمر بن الخطاب

هذا الاضطراب الشديد عند ماسمع بمصرع حفاظ القرآن فى حروب الردة . . حسب الروايات الذائعة عن جمع القرآن والتى سنناقشها بعد .

وما نقول هنا عن تدوين الصحابة للقرآن ، هو ماقلناه عن صلة رسول الله بالتدوين ، وهو أنه كان مجرد تسجيل لسور وآيات ، قد يمكن استخلاص مصحف منها أو أكثر من مصحف إذا راعينا الناسخ والمنسوخ . ولم يكن من بينها على الجملة مصحف كامل .

— ٢ —

الناسخ والمنسوخ

نسخ فى القاموس كمنع بمعنى أزال وغير وأبطل وأقام شيئا مقام شىء ، وهذا غير نسخ الكتاب أى نقله ...

والنسخ فى اصطلاح الفقهاء يطلق على معنيين[1] :

الأول — إبطال الحكم المستفاد من نص سابق بنص لاحق ، ومثاله ما ورد فى حديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور . ألا فزوروها » . فالنص الأول يطلب الكف عن الزيارة والنص الثانى يرفع ذلك النهى ويحل محله الإباحة والطلب .

الثانى — رفع عموم نص سابق ، أو تقييد مطلقه . ومثاله قوله تعالى فى سورة البقرة : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » ثم قال فى سورة الأحزاب : « إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا » فإن النص الأول عام ،

---

(١) تاريخ التشريع ص ٢٣

ينتظم المدخول بهـا وغيرها . والنص الثانى يعطى غير المدخول بها حكماً خاصًّا بها .

وكذلك قوله تعالى فى سورة النور : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً » ثم قال عقب ذلك : «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » فإن النص الأول عام ينتظم جميع القاذفين أزواجاً كانوا أم غير أزواج ؛ والنص الثانى جعل للأزواج حكماً خاصًّا بهم حيث جعل إيمانهم الخمس قائمة مقام الشهداء الأربعة ، وجعل للمرأة حق الخلاص من حد الزنا بإيمانها الخمس .

ومثال تقييد المطلق : قوله تعالى فى سورة الأحزاب (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ » وقال فى آية أخرى فى سورة الأنعام : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا » فالنص الأول مطلق للدم المحرم ، والثانى مقيد له بالدم المسفوح . اهـ .

■■■

والواقع أن الناسخ والمنسوخ من أهم غوامض القرآن ومشكلاته . . فحسبنا أن نتصور أن آيات من القرآن نزل بها الوحى ، فى ظرف من الظروف ثم جاءت مناسبة قضت بأن ترفع هـذه الآيات ، أى أن تبطل تلاوتها ولا

تصبح قرآناً . وأن تبقى ولا يعمل بمـا فيها ، إن كان ما فيها حكماً من الأحكام .

ولقد خاض المؤلفون كثيراً فى هذه الآيات والسور التى كانت من القرآن ثم لم تصبح قرآناً ، حتى قال السيوطى بحق عن الناسخ والمنسوخ : « افرده بالتصنيف خلائق لا يحصون » .

وسبب اهتمام القدماء بهـذا الفرع من علوم القرآن أنه يساعد المشرعين مساعدة مباشرة على تفهم الأحكام التى يعمل بها من القرآن ، والأحكام التى لا يعمل بها . وسبب اهتمام غـيرهم من العلماء هو البحث فى تطور الدعوة الإسلامية أيام النبى عليه السلام ، والبحث فى الأدوار التى مر بها التنزيل حتى انتهى إلى المصحف الذى بين أيدينا الآن .

ففى الإتقان : قال الأئمة . لا يجوز لأحـد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف الناسخ والمنسوخ . وقد قال على بن أبى طالب لقاض من القضاة : أتعرف الناسخ والمنسوخ . قال لا . قال هلـكت ، وأهلـكت .

وقد ورد ذكر النسخ فى القرآن أكثر من مرة .

قال تعالى : ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .

وقال أيضا : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كلِّ شىء قدير . إنا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنتمْ تَعْمَلُون .

والنسخ فى الآية الأولى هو إزالة آية من الآيات أو تبديلها . وفى الآية الثانية بمعنى النقل .

وورد معنى النسخ دون لفظه فى الآية : وإذَا بَدَّلْنَا آيَةً مكانَ آيةٍ ، واللهُ أعْلَمُ بمَا يُنَزِّل ، قالوا إنما أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بلْ أَكثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .

وذكر فى سبب النسخ؛ أى إبطال الأحكام أو تخفيفها رغبة الله تعالى فى التخفيف عن الناس .

ووضعت قواعد للنسخ ، هى من غير شك مجرد اجتهاد من الباحثين فى علوم القرآن ، إذ أنه لم يرد فى القرآن أو الحديث الثابت ذكر قواعد صريحة لهذه المسألة الهامة .

وما قاله العلماء فى النسخ :

أولا — لا ينسخ القرآن إلا بقرآن استنادا على آية النسخ .

ثانيا — وقيل : بل ينسخ القرآن بالسنة لأنها أيضا من عند الله . قال تعالى : وما يَنطِقُ عَنِ الهَوَى .

ثالثا — وقيل : إذا كانت السنة بأمر الله من طريق الوحى نسخت . وإذا كانت باجتهاد من النبى لا وحى فيه ، فلا تنسخ القرآن .

رابعاً — وذكر الإمام الشافعى انه حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها

قرآن مؤيد لها . وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمع القرآن سنة مؤيدة له ، ليتبين توافق هذين المصدرين الرئيسيين من مصادر التشريع الإسلامى .

■ ■ ■

ومعروف بداهة أن النسخ لا يقع إلا فى أمر يجب اتباعه ، أو طلب ، أو خبر يجرى مجرى الطلب . فأما الوعد والوعيد والقصص وغيره فلا نسخ فيه

وأحصيت سور المصحف التى عرف أن فيها ناسخا ومنسوخا فكانت خمسا وعشرين سورة هى : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والحج ، والفرقان ، والشعراء ، والأحزاب ، وسبأ ، والمؤمنون ، والشورى ، والذاريات ، والطور ، والواقعة ، والمجادلة ، والمزمّل ، والمدّثّر ، والتكوير والعصر .

وذكرت ست سور منها آيات ناسخة وليس فيها منسوخ ، وهى الفتح والحشر والمنافقون والتغابن والطلاق والأعلى .

وقيل إن من السور الباقية أربعين فيها أحكام منسوخة ، وباقى المصحف بعد هذا لم يختلف فى أنه خلا من الناسخ والمنسوخ جميعا ، وعدد هذه السور ثلاث وأربعون وهى :

الفاتحة ، ويوسف ، ويس ، والحجرات ، والرحمٰن ، والحديد ، والصف ، والجمعة ، والتحريم ، والملك ، والحاقة ، ونوح ، والجن ، والمرسلات ، وعم ، والنازعات ، والانفطار ، والمطففين ، والانشقاق ، والفجر إلى آخر المصحف ، فراجعها فى مصحفك .

ويمكن القول بأن السور التى لم يحدث تعديل فى آياتها هى السور المكية. وأما السور التى كثرت فيها أحكام التشريع فهى التى حدث فيها النسخ .

■■■

وقد اتسع مجال الخلاف بين القدماء فى الآيات التى لا تزال فى المصحف وأبطل العمل بأحكامها أو عدلت هذه الأحكام .

وذكر فى سبب بقاء هذه الآيات الكثيرة التى اتفق على نسخ أحكامها والتى اختلف عليها : « إن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به فيتلى لكونه كلام الله فيثاب عليه فتركت التلاوة لهذه الحكمة . ولما كان النسخ غالبا للتخفيف ، فقد أبقيت التلاوة تذكيرا للنعمة ورفع المشقة » .

وهذا الكلام لا يصلح سببا قويا لما ذكر من أجله .

ويشبهه فى عدم الإقناع ما ذكر فى سبب إلغاء آيات من المصحف مع بقاء حكمها . . فقد قيل فيه : « ليظهر مقدار طاعة هذه الأمة فى المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غير استفصال لطالب طريق مقطوع به ، فيسرعون بأيسر شىء ، كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام . والمنام أدنى طريق الوحى » .

فهذا دليل ظاهر الضعف من الوجهة العلمية كما ترى . ولا سبيل إلى ذكر سبب يطمئن إليه العقل حتى الآن .

■■■

ولنضرب أمثلة لهـذه الآيات التى نزلت و بطلت تلاوتها و بقى حكمها ..

وقبل هذه الأمثـلة نذكر ما قال ابن عمر : ليقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله . وما يدريه ما كله . قد ذهب منـه قرآن كثير . ولـكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر .

وهناك رواية عن عائشة تقول فيها : كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمن النبى صلى الله عليـه وسلم مئتى آية . فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن .

ولأُبى بن كعب رواية ثانيـة فى آيات سورة الأحزاب مؤداها أنه كان يتحدث مرة مع ذر بن حبيش فقال له : كأين تعـد سورة الأحزاب . فقال له ذر : اثنتين وسبعين آية أو ثلاثة وسبعين آية . فقال أُبى إن كانت لتعدل سورة البقرة ، و إن كنا لنقرأ فيها آية الرجم . فسأله ذر : وما آية الرجم قال : إذا زنا الشيخُ والشيخةُ ، فارْجُموهُما البتة نكالا من الله . والله عزيز حكيم.

وهناك رواية تورد آية الرجم هـذه التى لم ترد فى القرآن على نحو آخر هو : الشيخ والشيخة ، فارجموها البتة بما قضيا من اللذة .

وروى عطاء بن يسار عن أبى واقد الليثى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه أتيناه فعلمنا مما أوحى إليه .. قال : فجئت ذات يوم فقال إن الله يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة و إيتاء الزكاة . ولو أن لابن

آدم واديا لأحب أن يكون إليه الثانى . ولو كان إليه الثانى لأحب أن يكون إليهما الثالث . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب.

ورويت آية المال هـذه على لسان أُبى بن كعب بصورة أخرى هى أنه قال : قال لى رسول الله إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن . فقرأ ، لم يكن الذين كفروا من أهل الـكتاب والمشركين ... ومن بقيتها : لو أن ابن آدم سأل واديا من مال فأعطيته ، سأل ثانيا ، وإن سأل ثانيا فأعطيته . سأل ثالثا. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب . وإن ذات الدين عنـد الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية . ومن يعمل خيرا فلن يكفر...

وروى عن أبى موسى الأشعرى قال : نزلت سورة نحو براءة (فى عدد الآيات) ثم رفعت وحفظ منها : إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ، ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب .

وروى أبو موسى الأشعرى أيضا قال : كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات ، نسيناها ، غير أنى حفظت منها . يأيها الذين آمنوا لا تقولوا مالا تفعلون ، فتكتب شهادة فى أعناقـكم فتسألون عنها فى يوم القيامة .

وروى عن عمر بن الخطاب قال : كنا نقرأ : لا ترغبوا عن آبائـكم فإنه كفر بكم .. ثم قال لزيد بن ثابت أكذلك ؟ قال : نعم .

وروى أن عمر بن الخطاب قال لعبد الرحمن بن عوف : ألم تجد فيما أنزل علينا: أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة ، فانا لا نجدها ؟. قال كعب: أسقطت فيما أسقط من القرآن .

و يظهر أن هذه الآيات التى سقطت من القرآن كانت موضوع حديث بين الصحابة . فقد كان جمع منهم يسمرون ذات يوم ، فقال لهم مسلمة بن مخلد الأنصارى :

— أخبرونى بآيتين فى القرآن لم يكتبا فى المصحف . فلم يخبروه . فقال مسلمة :

— إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المفلحون . والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون[1] .

■■■

ما شأن هذه الآيات التى يقال انها كانت قرآناً ثم لم تصبح قرآناً . والتى إذا دققنا النظر فى بعضها لا نجده حكما من الأحكام يبدل بغيره لسبب من الأسباب ؟ ! .

---

(١) يراجع فى هذا كتاب الاتقان وكتاب المصاحف لابن أبى داود .

الأقوال فى هذا الشأن كثيرة . فمنها :

أولا — أن ما قيل عن وجود سور طويلة ، مثلما روى الأشعرى وأبى بن كعب ثم نقصت أو ذهبت كلها ، فإنما كان ذلك لأن الله أمر نبيه بإبطال تلاوتها لحكمة يعرفها .

ويؤيد هذا الرأى ما أخرج الطبرانى عن ابن عمر أنه قال : قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكانا يقرآن بها . فقاما ذات ليلة يصليان ، فلم يقدرا منها على حرف ، فأصبحا غاديين على رسول الله ، فذكرا ذلك . فقال : انها مما نسخ فالهوا عنها . . .

وفى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا، أن قرآناً نزل فيهم . ان أبلغوا عنا مؤمناً إنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا . . ثم رفع هذا القرآن .

الثانى — ان هذه الأخبار كلها عن آيات وسور نزلت ثم ذهبت غير صحيح . وقد تمسك بهذا القاضى أبو بكر فى الانتصار . وعلل قوله هذا بأن هذه الروايات أخبار آحاد لا يصح التعويل عليها .

الثالث — قال أبو بكر الرازى : نسخ الرسم والتلاوة ، وإنما يكون بأن ينسيهم الله إياه ، ويرفعه من أوهامهم ويأمرهم بالاعراض عن تلاوته وكتبه (كتابته) فى المصحف ، فيدرس على الأيام كسائر كتب الله القديمة

التى ذكرها فى كتابه فى قوله : إن هـذا لفى الصُّحُف الأولى ، صحف ابراهيم وموسى ، ولا يعرف اليوم منه شىء .

والذى نراه فى هـذا الشأن أن المصحف الذى بين أيدينا ليس هو كل القرآن الذى أنزل على رسول الله . وانما رفع بعضه . ولا سبيل الى تحديد هذا القسم الذى رفع منـه ، لأن أمر رسول الله بإسقاطه كان يكفى لـكى ينساه الصحابة ، ولا يدونوا منه شيئاً فى صحفهم .

وقد ذهب هذا القسم من القرآن ، ولا يمكن أن نعول على الروايات التى تذكر عن أن هذه الآية أو تلك كانت من القرآن ، ثم لم تصبح قرآناً ، اللهم إلا ما اختص بالتشريع ، واعتمد عليه الخلفاء بعد النبى فى إمضاء أحكامهم ولا تزيد هذه الآيات التشريعية عن آيتين هما آية الرضاع وآية الرجم .

أما آية الرضاع ، فقد ذكر عن عائشة أنهـا قالت : ان القرآن جاء فى الرضاع بعشر معلومات ، ثم نسخن بخمس معلومات . فالعشر مرفوعة التلاوة والحـكم جميعاً ، والخمس مرفوعة التلاوة باقية الحـكم .

وقد ذكرنا قبل آية الرجم التى نصت على عقوبة الزنا . وقد ذكر أن عمر كان شديد الاحتفال بحكم هـذه الآية حتى أنه قال : لولا أن تقول الناس زاد عمر فى كتاب الله لـكتبتها .

وروى أيضاً أنه لما نزلت آية الرجم ذهب عمر الى رسول الله واستأذنه

فى كتابتها فكره رسول الله ذلك . ويرى السيوطى أن سبب عدم إثبات هذه الآية هو التخفيف على الأمة بعدم اشتهار تلاوتها وكتابتها فى المصحف وان كان حكمها باقياً لأنه أثقل الأحكام وأشدها وأغلظ الحدود

ويظهر أن الناس فى عهد عمر بن الخطاب تباحثت فى حكم الرجم فصعد عمر بن الخطاب الى المنبر وقال : لا تشكوا فى الرجم فانه حق . وقد هممت أن أكتبه فى المصحف فسألت أبى بن كعب فقال : أليس أتيتنى وأنا أستقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدفعت فى صدرى وقلت تستقرئه آية الرجم وهم يتسافدون تسافد الحمر ؟.

وفيما عدا هذين الحكمين لا يصح التعويل على رواية من الروايات فى هذا الشأن .

■ ■ ■

ومن المسلم به أن أسباب رفع الآيات والسور ، وإسقاطها من صحائف المصحف ، كان أمراً معروفاً لدى الصحابة وواضحاً فى أذهانهم أتم وضوح ، حتى أنهم عندما أخذوا فى جمع المصحف لم يروعنهم إلا أيسر اختلاف سنعرض له فيما بعد . . ولو أن أمر هذا النسخ كان من المشكلات التى جابهتهم فى حياة الرسول ، إذن لتردد صداها فى كتب الحديث أو كتب السيرة . .

وقارئ سيرة النبي يعلم أنه كان شديد الحرص على بيان وجهة نظره في كل أمر من الأمور ، وعلى أن يكون صحابته من حوله ، وهم حملة رسالته من بعده فاهمين كل الفهم لتصرفاته ، لأن هـذا الفهم أساس من أسس الثقة الـكاملة به . .

ولعل محمداً عليـه السلام هو أول نبي ، بل أول صاحب دعوة كائنة ما كانت يعمد إلى هذه الأناة الطويلة ، لا فى إفهام وجهة نظره ، ولـكن فى تفهم وجهات نظر الآخرين ، وكثيراً ما رأيناه يباحث فى رأى قال به ، ثم يأخذ بما قالوا ويعدل عن رأيه ، أو يأخذون بما قال ويعدلون عن رأيهم

وقد قرأت فى هـذا الصدد بحثاً نفيساً للشيخ عبد الرحمن الجزيرى وموضوعه « كيف كان يجتهد الرسول وكبار الصحابة فى الأحكام الشرعية » وقد عرض باحثه فيـه لطريقة النبي وأصحابه فى تفهم المسائل وإبداء الرأى فيها . وهذا البحث يؤيد ما قلناه ، وهو أن جو « السلام » الفكرى كان يسود المدينة فى حياة النبي . ولو أن موضوع الناسخ والمنسوخ كان ممـا يثير جدلا ، إذن لتردد صداه وإذن لاختلف فيه المسلمون بعد النبي خلافاً واضحاً قوياً . وإذن لخطأ بعضهم بعضاً فى أهم أساس من أسس الإسلام وهو القرآن ، ولـكن شيئاً من هذا لم يحدث ، ممـا يدل على الاطمئنان الـكامل إلى أن القرآن الذى تركه رسول الله ، هو القرآن الذى أمره ربه بتركه للناس لا يزيد ولا ينقص .

ويحسن أن نقتبس هنا سطوراً من بحث الشيخ الجزيرى الذى أشرنا إليه تأييداً لما قلنا . وهو أن ما يوهمه ظاهر البحث فى موضوع الناسخ والمنسوخ من وجود خلاف لم يكن له ظل أو صدى فى حياة رسول الله . كما لم يكن لغيره من المباحث تأثير يعكر هذا السلام الفكرى الذى ذكرناه . قال الشيخ[1] :

(... هذا هو اجتهاد الرسول وأصحابه . فهل رأيتهم اختلفوا فى أصل من أصول الدين ، أو فى عقيدة من العقائد أو فى نص من نصوص كتاب الله الواضحة الجلية ؟ . وهل رأيتهم ينتحلون فى اختلافاتهم دليلا واهنا أو معنى بعيدا كى يصلوا بذلك إلى غرض شخصى أو شهوة كامنة أو اعتقاد باطل ؟ وهل رأيت أحدا منهم يتعصب لرأى أو يحاول الظهور بين الناس بالعلم والذكاء والقدرة على افحام مناظره ؟ أو هل رأيت أحدا منهم يضحى فى اجتهاده بالمصلحة العامة طمعاً فى الحصول على مصلحة خاصة . أو رأيتهم جميعا فى اجتهادهم على العكس من ذلك . لا يجتهدون إلا للمصلحة العامة التى يترتب عليها إعزاز دينهم ووطنهم . فلا يبغون بها بديلا ولو قطعت رقابهم وزهقت نفوسهم ؟

نعم . إنهم كانوا كذلك وأكثر من ذلك لمن يتأمل . فكانوا خير قدوة لمن بعدهم من المجتهدين الذين درجوا على نهجهم . وساروا فى طريقهم واتبعوا آثارهم . فلم يخرجوا عنها قيد شعرة .. »

---

(١) ص ٦٧٧ الى ٦٨٨ من مجلة الأزهر ـ المجلد الثامن

— ٣ —

القرآن فى عهد أبى بكر وعمر

ما ذكرنا من بحث حتى الآن يدور حول القرآن فى حياة رسول الله .. فلما توفاه الله ، بدأ التفكير فى جمع المصحف .

تقول الرواية الذائعة عن جمع المصحف: إن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله ، فقيل كانت مع فلان ، قتل يوم اليمامة . فقال: إنا لله . وأمر بجمع القرآن ..

وفى البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال :

أرسل إلىّ أبو بكر (عقب) مقتل أهل اليمامة . فاذا عمر بن الخطاب عنده . قال أبو بكر :

— إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن .

فقال زيد لعمر :

— كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله .

قال عمر :

— هذا والله خير .

فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى الذى رأى عمر

قال أبو بكر :

— إنك رجل شاب عاقل لانتهمك . وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ، فتتبع القرآن فاجمعه .

قال زيد :

فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن . قلت :

فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره : « لقدْ جاءكم رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ » .. إلى آخر براءة .

هذه أشهر رواية فى كتب الحديث . وتزيد فى بعضها وتنقص فى بعض آخر . ولكن جوهرها واحد .

ولنرجع إلى كتب التاريخ لنرى قصة أهل اليمامة ، وما قالته عن صلتها بجمع القرآن .

يقول ابن الأثير بعد أن انتهى من ذكر ما كان بين خالد وجيش مسيلمة. وقد قتل من المهاجرين والأنصار من المدينة ثلاث مئة وستون . ومن المهاجرين من غير المدينة ثلاث مئة رجل . وقتل ثابت بن قيس . قطع رجل من المشركين رجله ، فأخذها ثابت وضربه بها فقتله .. وقتل من بنى حنيفة بعقرباء سبعة آلاف وبالحديقة مثلها وفى الطلب نحو منها ... ولما رجع الناس قال عمر لابنه عبد الله وكان معهم : ألا هلكت قبل زيد[1] هلك زيد وأنت حى ، الا واريت وجهك عنى . فقال عبد الله : سأل الله الشهادة فأعطيها . وجهدت فى أن تساق إلى فلم أعطها . وفى هذه السنة بعد وقعة اليمامة أمر أبو بكر بجمع القرآن لما رأى من كثرة من قتل من الصحابة لئلا يذهب القرآن .

ثم ذكر ابن الأثير بعض أسماء القتلى ومنهم عباد بن الحارث الأنصارى (شهد أحدا) وعمير بن أوس الأنصارى (شهد أحدا أيضا) وعامر بن ثابت الأنصارى وعمارة بن حزم الأنصارى (شهدا بدرا) وعلى بن عبيد الله بن الحارث ومُرة بن النعمان الأنصارى (شهدا أحدا) وسعد بن حجاز الأنصارى (شهد أحدا) وسلمة بن مسعود الأنصارى والسائب بن عثمان بن مظعون

---

(١) الظاهر أنه زيد بن الخطاب فقد ذكر الواقدى أن زيد بن الخطاب كان يحمل راية المسلمين فلما رأى أصحابه ينصرفون صاح بهم : والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتى . عضوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا فى عدوكم وامضوا قدما . ولم يزل كذلك حتى قتل .

(هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا) والسائب بن الزبير أخو الزبير والطفيل بن عمرو السلمى (شهد خيبر) وعبد الله بن عبد الله بن أبى بن السلول وعبد الله بن عتيك وهريم بن عبد الله المطلبى القرشى وأخوه جنادة والوليد بن عبدشمس ابن عم خالد بن الوليد ويزيد بن ثابت أخو زيد بن ثابت .

والسبب فى ذكرنا لهذه الطائفة من الأسماء اننا سنعود إليها لنرى هل كان حقيقة مقتل هؤلاء ، وهم أشهر صرعى حروب الردة يؤثر فى عدد حفاظ القرآن حتى تصح لدينا الرواية الشائعة عن أن مقتلهم كان سببا مباشرا فى جمع القرآن ! ؟

وفى كتاب الشهر خالد بن الوليد لطه باشا الهاشمى [1]

أما خسائر المسلمين فكانت كثيرة بالنسبة إلى عددهم أو مقدار الخسائر التى كابدوها فى المعارك السابقة .

فالروايات عن عدد قتلى المسلمين مختلفة . فهى متفاوتة بين ٥٠٠ و ١٧٠٠ ويروى عيسى بن سهل عن جده رافع أن قتلى المسلمين بلغ عددها نصف قتلى الحنفيين (جيش مسيلمة) وأن الأنصار وحدهم (وكان عددهم خمس مئة مقاتل) خسروا سبعين قتيلا ومئتى جريح . أما أبو سعيد الخدرى فيزعم أن عدد قتلى الأنصار بلغ سبعين . ويقول زيد بن طلحة أن قتلى المهاجرين

---

(١) ص ١٦٢

بلغوا السبعين قتيلا وقتلى الأنصار بلغ السبعين أيضا وأن مجموع قتلى باقى المسلمين بلغ الخمس مئة .

أما سالم بن عبد الله بن عمر فيذكر أن مجموع قتلى المسلمين بلغ الستمئة

وأما البلاذرى فيقول : وقد اختلفوا فى عدة من استشهد فى اليمامة . فأقل ما ذكروه عن مبلغها سبع مئة . وأكثر ذلك ألف وسبع مئة . وقال بعضهم إن عدتهم ألف ومئتان . والذى يلوح لنا أن هذا العدد الأخير هو الأصح وهو يؤيد الرواية التى يرويها الطبرى نقلا عن سهل إذ يقول : (قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلاث مئة وستون ومن المهاجرين من أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلاث مئة من هؤلاء وثلاث مئة من هؤلاء .. ست مئة أو يزيدون) .

ثم قال طه باشا الهاشمى :

« وذكر المؤرخون أسماء الشهداء من المهاجرين والأنصار ونظموا قائمات بذلك . ويتضح من مطالعتها أن بين القتلى زيد بن الخطاب قائد القلب وأبا حذيفة بن عتبة قائد الميمنة وشجاع بن وهب قائد الميسرة وقيس بن ثابت قائد الأنصار . ويدل كل ذلك على شدة القتال فى المعركة » اه .

وقد سقنا المعلومات التى لدينا على هذا النحو لنحاول جلاء نقطتين غامضتين :

أولهما — أن سبب جمع المصحف ـ كما تذكر الروايات ـ أن عمر سأل عن آية فقيل هى عند فلان الذى قتل باليمامة .

ثانيهما — أن فى رواية زيد بن ثابت التى ذكرها البخارى شيئاً من الغموض . فبعد أن ذكر أن عمر أقنعه بضرورة جمع القرآن لأن « القتل استحر فى المواطن » قال إن أبا بكر طلب منه نفس الطلب وكان حاضراً فى هذا الاجتماع ، وان زيداً أبى عليه ، فما زال به حتى أقنعه

والذى يبدو لنا أن موت القراء فى حروب الردة ليس هو السبب المباشر فى إشارة عمر بجمع القرآن . لأننا لو أخذنا بهذا النص الغامض الذى يقول ان عمر سأل عن آية فلم يجدها لأن حاملها قتل ، فاننا نسلم أنفسنا الى مشاكل أشد تعقيداً منها . . مثلا : هل يجوز أن نوافق على أن آيات القرآن كانت مفرقة على هذا النحو فى صدور الرجال بحيث لا تكون آية من الآيات فى ذاكرة أحد إلا هذا الجندى الذى مات فى حرب الردة ؟ ! وأين هذه الصحف التى قيل انها كانت تكتب بإشراف رسول الله ؟ وأين هؤلاء الصحابة الذين كانوا لا يزالون فى المدينة ، وهم زعماء الإسلام ورؤوس الدعوة المحمدية بعد رسول الله ، وكيف تفوتهم هذه الآية وغيرها . . نحن بين أمرين : إما أن نسلم بأن القرآن لم يكن فى صدور الرجال وفى الصحف على نحو دقيق

يبعث على الاطمئنان بحيث تجوز هذه الرواية ، وهـذا عسير كل العسر . . وإما أن نسلم بأن هذه الرواية وما سار فى طريقها ـ وهو كثير ـ غير صحيح أو على الأقل غير دقيق . .

ويؤيد هذا الذى ذكرنا من اضطراب الروايات عن تاريخ القرآن ، ووجوب أخذها بشىء غير قليل من الاحتياط ، ما لاحظناه فى رواية زيد ابن ثابت من التدافع الذى يبدو لدى النظرة الأولى .

وقد أشرنا إشارة سريعـة ، ونحن نورد رواية ابن الأثير إلى أن من الواجب أن نمعن النظر كثيراً فى هـذه الأسماء التى تذكر عن قتلى حروب الردة ، والتى ذكر طه باشا الهاشمى أن المؤرخين تفننوا فى إحصائها وعرضها واختلفت الروايات اختلافاً كبيراً فى عدد القتلى . . إننا لا نلمح فى هـذه الأسماء ، بقدر ما تدل عليه معلوماتنا عن الصحابة وما تذكر الـكتب التى عنيت بأخبارهم ـ مثل أسد الغابة ـ من يصح أن نقول إن فقده يوجد خللاً فى البناء العقلى للمدينة . . فلا يزال أئمة الصحابة بخير ، ولا يزال الـكتاب والحفاظ ، ولا يزال الصحابة الذين كانوا يلازمون النبى ملازمة متصلة ، أحياء حتى نهاية حروب الردة . .

ولقد وقفت دائرة المعارف الإسلامية حائرة أمام هـذه النقطة ، فهى لا ترى أن جند خالد الذين فقدوا فى حروب الردة من أصحاب الأسماء اللامعة فى تاريخ السيرة النبوية ونحن مع الدائرة فى أن حيرتها تستند إلى أساس قوى .

ماذا إذن ؟ . . وما هو وجه الصواب ؟

نحسب أن الأمر ليس عسيراً كل العسر . والذى نرجحه أن أبا بكر وعمر وغيرهما من الصحابة خشوا ، وقد اندفع المسلمون فى حروب الردة ثم فى حروب الفتح ، أن يهمل أمر القرآن ، وهو معجزة محمد الكبرى ، ودعامة الإسلام الأولى ، فاتفقوا على جمعه من هذه الصحائف المتفرقة، التى كان يكتبها عارفوا الكتابة من الصحابة ، ومن صدور الناس . . فكتب القرآن ، أو على الأصح نقل ما كان منه مكتوباً ، وأكمل بما كان محفوظاً فى صدور الرجال .

وقد ذكرنا قبل ان من الروايات ما يقول إن هناك مصاحف كانت موجودة فى أيام النبى ، بعضها تم فى عهده و بعضها أكمل بعده . ونعقب هنا على هذه الروايات بقولنا انها لا تثبت للنقد الدقيق ، فلو أنها كانت موجودة إذن لما وجد أبو بكر عناء فى الأمر بتدوين المصحف ولا كتفى بمراجعة مصحف من المصاحف الموجودة واعتماده . . ثم ان أبا بكر لم يكن يقصد جمع مصحف و إنما قصد مجرد التدوين دون ترتيب .

وفى كتاب المصاحف لابن أبى داود روايات كثيرة عن البدء بجمع المصحف . ويظهر أن من الواجب أن ندقق فى فهم كلمة « الجمع » فهى ترد أحياناً بمعنى التدوين وضم الصحائف بعضها إلى بعض ، وترد أحياناً أخرى

بمعنى الحفظ والاستظهار . وليس المعنى الثانى بغريب فهو مستعمل فى اللغة العربية ، ولا تزال طوائف من تلاميذ الأزهر وغيره من مكاتب العلم تستعمل كلمة جَمَع بمعنى حفظ واستظهر .

وقد أشرنا قبل إلى الروايات التى ترددها كتب الشيعة وغيرها عن أن عليًا بن أبى طالب تلقى أمراً من رسول الله بأن يتفرغ « لجمع » القرآن بعد وفاته . وقد ردد كتاب المصاحف وغيره هذه الرواية، فمثلا قال علىّ : لما مات رسول الله آليت ألاّ آخذ علىّ ردائى إلا لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن فجمعته . وشك ابن حجر فى هذه الرواية ، وقال : إن صحت فإن المقصود منها أن يكون علىّ بن أبى طالب قد أراد حفظ القرآن فى صدره .

وفى رواية أخرى عن عكرمة لما كان بعد بيعة أبى بكر قعد علىّ بن أبى طالب فى بيته فقيل لأبى بكر قد كره بيعتك . فأرسل إليه فقال أكرهت بيعتى . قال لا والله . قال : ما أقعدك عنى . قال رأيت كتاب الله يزاد فيه فحدثت نفسى أن لا ألبس ردائى لصلاة حتى أجمعه . قال أبو بكر : فإنك نعم ما رأيت . .

و إذن فلم يكن هناك قرآن مجموع فى عهد النبى . ولم يكن السبب المباشر لجمع المصحف قتل من يسمون القراء فى حروب الردة ، وإنما بدىء بجمع المصحف بعد وفاة النبى ، لشعور المسلمين بالحاجة إلى جمعه حتى لا يزاد عليه أو ينقص منه .

وأما طريقة زيد بن ثابت فى العمل فهى انه جمع ما استطاع جمعه من الآيات والسور المدونة . وكان يسأل ثقاة الصحابة ما فى صدورهم من القرآن حتى تم له تدوين جميع القرآن فى أوراق . وبطبيعة الحال كان يحتاط لما نسخ من الآيات والسور . وكان يراجع فى هـذا الصحابة حتى يستوثق له الأمر ..

ففى كتاب المصاحف . قدم عمر فقال : من تلقى من رسول الله شيئا من القرآن فليـأت به . وكانوا يكتبون ذلك فى المصحف والألواح والعسب . وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان .

ويعلق السيوطى على هـذه الرواية . وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوبا حتى يشهد به من تلقاه سماعا ، مع كون زيد كان يحفظ . فـكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط .

وفى نفس المصـدر (كتاب المصاحف) أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : اقعدا على باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه

ووفق بعض القدماء بين هذه الروايات وبين القول بأن القرآن كان كله مدونا فى أيام رسول الله . فقال أبو شامة : وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدى النبى لا من مجرد الحفظ . وذكر عن آخر سـورة التوبة أن زيدا لم يجدها إلا عند شخص واحد . أى انه لم يجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الـكتابة .

وقال السيوطى عن هذين الشاهدين . أنهما يشهدان على أن ذلك مما عرض على النبى صلى الله عليه وسلم عام وفاته، كما يؤخذ مما تقدم آخر النوع السادس عشر .

وآخر النوع السادس عشر هو أن زيداً بن ثابت شهد عرض القرآن آخر مرة على رسول الله . وقد بين فيه ما نسخ وما بقى .

ورواية أخرى عن طريقة الجمع تقول : أقبل الناس بما كان معهم وعندهم حتى جمع على عهد أبى بكر فى الورق .

ويورد ابن حجر رواية أخرى عن زيد بن ثابت . قال أمرنى أبو بكر فكتبته فى قطع الأديم والعسب . فلما توفى أبو بكر ، وكان عمر ، كتبت ذلك فى صحيفة واحدة فكانت عنده ..

وهذه رواية غير معقولة طبعا إذ يستحيل أن يجمع القرآن فى صحيفة واحدة ! !

وفى موطأ ابن وهب عن سالم بن عبد الله بن عمر قال جمع أبو بكر القرآن فى قراطيس . وكان سأل زيد بن ثابت فى ذلك فأبى حتى استعان عليه بعمر ففعل .

وفى كتاب تاريخ القرآن للزنجانى . التأمل الصادق والشواهد يعطى أن اقتراح عمر جمع القرآن إنما كان لجمعه فى الورق . ونقل عن المزهر أن عمر

قال : لا يملين فى مصاحفنا إلا غلمان من قريش وثقيف ، وقال عثمان : اجعلوا المملى من هذيل ، والكاتب من ثقيف .

وبعد أن أتم زيد عمله أودعت الصحف التى دونها عند أبى بكر ثم عند عمر مدة حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر .

■■■

وعلى الرغم من كثرة النصوص التى رجعنا إليها ، والتى نقلنا بعضها هنا لا يزال هنـاك بعض الغموض يحيط بالطريقة التى اتبعها زيد بن ثابت فى جمع صحف القرآن .

فقد ذكر أنه كان يحفظ القرآن كله ، ومن المرجح أن عددا من الصحابة كانوا يحفظون القرآن منهم عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب .. وربما أبو بكر وعمر . فلماذا لم يجتمع هؤلاء ويتموا عملهم مستعينين بالصحف التى أملاها النبى وبذاكرتهم ؟ !

يظهر لنا أن هذه الطريقة الطبيعية المعقولة هى التى اتبعت وأما هـذا الجلوس على أبواب المسجد ، واستعراض ما لدى الناس من قرآن ، فأقرب أن يكون إلى الوهم منه إلى الحقيقة . بل ان هذه الآيات من آخر سورة براءة التى يذكرون أنها لم توجد إلا عند شخص واحد تحتمل روايتها الشك .. فلماذا لم تكن عند أبى بكر وعند عمر وعند زيد بن ثابت وعند عبد الله بن مسعود وعند على بن أبى طالب ؟ !

وكما وقفنا قبل بين فرضين نختار أحدهما . نقف هنا أيضا بين فرضين آخرين لنختار .. فاما أن كبار الصحابة لم يكونوا يحفظون القرآن ، ولم يكن قد دون منه القدر الكافى ، فلجأ زيد بن ثابت إلى اصطياد الآيات بهذه الطريقة التى رويت .. واما أنهم كانوا يعلمون القرآن علما دقيقا ، ويعلمون ما نسخ منه ، وما أبطلت تلاوته وتم لهم جمع المصحف بطريقة هادئة لا ارتجال فيها . والقراء معنا فى أن الفرض الثانى هو الذى نختاره ، لأنه أقرب إلى الصواب ، وأدنى إلى طبائع الأشياء ، وهو الذى يحقق الآية الكريمة «إنّا نحنُ نزّلْنا الذِّكْرَ وإنّا لهُ لحافِظُون» .

— ٤ —

فى عهد عثمان

ظاهر من الروايات التى سبق لنا ذكرها فى الفصل الماضى أن زيد بن ثابت أتم تدوين الصحف فى عهد أبى بكر ، أى أنه استغرق فى عمله عاما أو نحوه ، إذا قدرنا أنه لم يبدأ بالعمل أول خلافة أبى بكر مباشرة . وربما كانت هذه الفترة أقل مما يتطلبه عمل ضخم كهذا ، يحتاج إلى كثير من التدقيق واعمال الروية .. وخصوصا أنه كان يحتاج إلى استخلاص الآيات والسور مما نسخ من القرآن ولم يصبح قرآنا .

وسواء تم هذا العمل قبل وفاة أبى بكر أو تم فى خلافة عمر ، فالثابت أن الصحف كانت تودع عند الخليفة .. ولم نقف على روايات تقول إن عمر راجع مرة أخرى هذه الصحف ، وذلك لما نرجحه من أنه كان مشتركا اشتراكا فعلياً مع زيد بن ثابت وغيره فى جمعها وتدوينها .

ولقد مات عمر بن الخطاب ، ونبحث عن الصحف بعده فإذا بنا نجدها عند حفصة بنت عمر وزوج رسول الله .

وتسأل دائرة المعارف الإسلامية لماذا أودعت عند حفصة ، ولِمَ لَمْ تودع عند الخليفة الجديد الذى ولى أمر المسلمين وهو عثمان بن عفان ؟ !

ويظهر أن اختيار حفصة لكى تكون عندها الصحف تم لسببين :

أولهما — أنها كانت زوج رسول الله وبنت خليفة رسول الله .

ثانيهما — أنها كانت تعرف القراءة والكتابة .

وعلى كل حال لن تترتب نتائج هامة على تحقيق المكان الذى أودعت فيه الصحف ، فما دام قد ثبت أن هذه الصحف كتبت ، وأنها كانت عند عمر ، فلتكن من بعده عند حفصة أو عند غيرها ، فالذى يعنينا هو أن نسأل سؤالا آخر أهم مما سألت دائرة المعارف :

لماذا لم يأمر أبو بكر ، أو عمر بنسخ صور مما كتب زيد بن ثابت ! ولماذا لم يحرص كبار الصحابة على أن يكون لدى كل واحد منهم أو لدى بعضهم على الأقل نسخ من هذه الصحف التى تتضمن كتاب الله ؟

الجواب على هذا السؤال عسير . ويمكن أن نقول ان هذه الصحف التى كتبها زيد ، إنما أريد منها أن تكون وثيقة للتسجيل أكثر منها أى شىء آخر .. ولم يقصد منها أن يستعان بها فى حفظ أو مراجعة . وذلك لأن تلاميذ محمد عليه السلام الذين علمهم القرآن ، وبصرهم به ، كانوا أحياء . وكانت مدارس تحفيظ القرآن لا تزال موجودة . ثم إن المسلمين وقد اطمأنوا فى هذا العهد إلى تسجيل قرآنهم ، لم يشغلوا أنفسهم به ، فقد كانت أمامهم

مسائل جسيمة على غاية من الخطورة تستنفد كل وقتهم ونعنى بها هذه الغارة العظيمة التى شنوها على امبراطوريتى كسرى وقيصر .

■■■

فلما كان عهد عثمان بن عفان جد من المناسبات ما دعا إلى إعادة النظر فى أمر هذه الصحف التى كتبها زيد بن ثابت .

روى البخارى عن أنس أن حذيفة بن اليمان ، قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح ارمينية واذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان إلى حفصة أن ارسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة . إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فانه إنما نزل بلسانهم . ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

قال زيد :

ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى وهى : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ماعاهَدُوا اللهَ عليْهِ » . فألحقناها فى سورتها فى المصحف

وهناك رواية أخرى فى كتاب اختلاف المصاحف لابن أبى داود مؤداها أن عثمان لما أراد أن يكتب المصاحف جمع له اثنى عشر رجلا من قريش والأنصار ، فبعثوا إلى الربعة التى فى بيت عمر ، فجىء بها . وكان عثمان يتعاهدهم ، فكانوا إذا تداروا فى شىء أخروه . قال محمد فظننت إنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونه على قوله .

وإذن فقد أمر عثمان بتأليف لجنة تقول رواية البخارى إن عددها أربعة ، وتقول رواية أخرى إنهم أكثر ، ولكن من المؤكد أن من بينهم زيداً بن ثابت ... والسبب فى تأليف هذه اللجنة لإعادة النظر فى أمر صحف القرآن هو هذه اللغات التى فصلنا أمرها فيما مضى ، والتى ورد فيها حديث : « نزل القرآن على سبعة أحرف » وقد اختصم الناس فى عهد عثمان — وربما كان خصامهم أسبق من عهده ولكن لم تظهر له نتائج حتى أيامه .

وقد روى فى شأن هذا الخصام عن أنس بن مالك قال : اختلفوا فى القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون . فبلغ ذلك عثمان بن عفان فقال : عندى تكذبون به وتلحنون فيه . فمن نأى عنى كان أشد تكذيباً

وأكثر لحناً . . . يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً . . فاجتمعوا فكتبوا . فكانوا إذا اختلفوا وتدارؤا فى أى آية قالوا هذه أقرأها رسول الله فلاناً . فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له : كيف أقرأك رسول الله آية كذا وكذا فيقول كذا وكذا فيكتبونها وقد تركوا لها مكاناً .

وفى رواية أخرى أن الخلاف كثر فى عهد عثمان فى وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم الى تخطئة بعض ، فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتباً لسوره

ومن هاتين الروايتين يفهم أن الخلاف فى القرآن كان فاشياً فى البلاد البعيدة حيث سافر المسلمون للفتح ، كذلك وجد فى المدينة وفى غيرها . . . وهذه الخلافات فى عهد عثمان تقطع بأن أبا بكر وعمر لم يفرضا مصحف زيد ابن ثابت على الناس . بل ظل كل مَن لديه ورقة مكتوبة من عهد النبى متمسكاً بها . وكل من لديه صيغة من الصيغ سواء كانت من القرآن الباقى أو من القرآن المنسوخ كان يتلوها ، ويعتقد أنها هى القرآن .

■ ■ ■

ما الذى عملت هذه اللجنة التى تقول رواية انها من أربعة ، وتقول أخرى انها أكثر من أربعة ؟ . . .

راجعت اللجنة كما فى رواية البخارى الصحف التى كانت مودعة عند حفصة ورتبت سورها ، وما غاب منها أكملته .

وإذن فلم يجمع القرآن فى عهد عثمان، وإنما اعتمد اعتماداً كبيراً على ما تم فى عهد أبى بكر. وبعد أن تم الاتفاق على صيغ جميع الآيات، ومكانها فى السور، وترتيب السور، ووافق عثمان على ما انتهت إليه اللجنة من رأى، انتسخت أربع نسخ أو أكثر من « الامام » فهكذا أسمى مصحف عثمان وأرسلت الى الأمصار، وصدر أمر أمير المؤمنين بأن تصادر جميع الصحف والأوراق التى يحتفظ بها المسلمون حتى ذلك العهد، وأمر بها فأحرقت إحراقاً وألزم الناس بقراءة واحدة هى التى وردت فى « الامام ».

قال القاضى أبو بكر فى الانتصار: لم يقصد عثمان قصد أبى بكر فى نقش القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات (كذا ! !) الثابتة المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه، ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءاته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعد..

— ٥ —

الصحابة ومصحف عثمان بن عفان

أتمت اللجنة التى اختارها عثمان بن عفان عملها ، وكان ذلك فى عام ٢٥ للهجرة أو فى عام ٣٠ ، وربما كان بين هذين العامين لأنه عمل كثير يستغرق انجازه أكثر من عام .. وصدر أمر أمير المؤمنين بأن يحمل الناس على اتباع ما فى « الامام » وهو المصحف الذى تمت كتابته ، وأن تبطل ما عداه من قراءات .

ومن ذلك الوقت والحديث متصل حول عثمان ومصحفه . .

ففى أخبار سنة ٣٠ يروى كتاب الكامل لابن الأثير سبب اختلاف الناس فى القرآن ، يقول ان أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، وانهم أخذوا القرآن عن المقداد . وأهل دمشق يصوبون قراءتهم عن قراءة غيرهم وأهل الكوفة يقولون مثل ذلك وانهم قرأوا على عبد الله بن مسعود وأهل البصرة يتمسكون بما أقرأهم أبو موسى الأشعرى ويسمون مصحفه لباب القلوب .

وقد نقل تفصيل هذا الخلاف إلى عثمان ، فأمر بنسخ مصحف الامام كما ذكرنا ، وفرق النسخ فى الآفاق . . فكل الناس عرف فضل هذا الفعل إلا ما كان من أهل الكوفة ، فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب رسول الله . واما أصحاب عبد الله بن مسعود ومن وافقهم فقد امتنعوا من ذلك وعابوا الناس . فوقف فيهم عبد الله يأمرهم بالهدوء والتزام الطاعة . وكان مما قال لأهل المسلمين الذين نقدوا مصحف عثمان على ملأ من الناس . اسكت ، فعن ملأ منا فعل ذلك . فلو وليت منه ما ولى عثمان لسلكت سبيله .

ولكن الروايات الأخرى التى أوردها كتاب الإتقان نقلا عن الكتب التى عرضت لعلوم القرآن تدل على شيئين

أولا — أن عثمان لم يصادر مصاحف كبار الصحابة أمثال علىّ بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وأُبى بن كعب

ثانيا — أن هذه المصاحف كانت تختلف فى بعض التفاصيل عن مصحف عثمان

وأظهر الروايات تروى فى هذا الصدد ما ينسب إلى عبد الله بن مسعود من أنه أنكر على اللجنة العثمانية أن تضيف إلى القرآن المعوذتين « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ »... « وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ » .

قال ابن حجر فى شرح البخارى قد صح عن ابن مسعود إنكار

المعوذتين ، فأخرج أحمد وابن حيان عنه أنه كان لا يكتب المعوذتين فى مصحفه .

وأخرج غيره أن عبد الله بن مسعود كان يحك المعوذتين من مصاحفه ويقول انهما ليستا من كتاب الله .

وأخرج البزار والطبرانى من وجه آخر أن ابن مسعود كان لا يقرأ بهما . وكذلك كان يرى هذا الرأى فى فاتحة الكتاب

وبذا يكون مصحف ابن مسعود ١١٢ سورة بدلا من ١١٤ .

وقد حاول كثيرون من القدماء والمحدثين الرد على هذه الروايات المنقولة عن ابن مسعود وهذا الرد على قسمين :

أولا — رد ينكر أن ابن مسعود قال كلاماً كهذا أو تأوله .

ثانياً — رد يعتمد هذه الروايات ولكنه يخطئها .

■ ■ ■

فأما إنكار أن ابن مسعود قال كلاماً كهذا ، فقد ذهب النووى فى شرح المهذب الى أن المسلمين أجمعوا على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، ومن جحد منها شيئاً كفر . وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح .

وقال ابن حزم : هذا كذب على ابن مسعود وموضوع .

وقال الإمام فخر الدين الرازى : نقل فى بعض الكتب القديمة أن ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن ، وهو قول فى غاية الصعوبة ، لأنا إن قلنا ان النقل المتواتر كان حاصلا فى عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن فإنكاره يوجب الكفر . وإن قلنا لم يكن حاصلا فى ذلك الزمان فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر فى الأصل . . والأغلب على الظن أن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود نقل باطل وبه يحصل الخلاص من هذه العقدة .

وقال القاضى أبو بكر ، لم يصح عنه أنها ليست من القرآن ولا حفظ عنه وإنما حكها وأسقطها من مصحفه إنكاراً لكتابتها ، لا جحداً لكونها قرآناً لأنه كانت السنة عنده أن لا يكتب فى المصحف إلا ما أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإثباته فيه ، ولم يجده كتب ذلك ولا سمعه أمر به .

وفى بحث أنشأه الأستاذ فريد وجدى تحت عنوان : « رد شبهات على القرآن الكريم » يناقش فيه ما ورد فى كتاب الوحى الجديد ، تعرض لهذه النقطة . . فهو ينقل عن هذا الكتاب قوله :

« إن ابن مسعود هذا — وقد نعته بأنه أعلم الناس بالقرآن — لم يكن ليعتبر نسخة عثمان صحيحة ، وأنه رفض أن يسلمه نسخة ليحرقها ، وأنه أشار على أهل العراق ليكتموا نسخهم قائلا ، يا أهل العراق اكتموا المصاحف التى عندكم وغلقوها . وإنه حذف السورة الأولى (أى الفاتحة) والسورتين الأخيرتين من نسخته ، بحجة أن تلك السور ليست من كتاب الله . . »

ويرد الأستاذ وجدى بقوله:

« يمكن أن يتساءل متهم ، أى مصلحة للذين جمعوا القرآن أن يضعوا فيه ثلاث سور قصار ليست منه فى شىء ؟ أرموا بذلك إلى غرض من الأغراض التى تحمل النفوس السافلة على التحريف ، وليس فيها مايشوه جمال القرآن ، ولا ما يتناقض الحكمة التى أتى بها ؟

وهل يعقل أن يضع المجرمون فاتحة لكتاب ، وأن يذيلوه بسورتين صغيرتين ، فى أمة تتعبد بتلاوة ذلك الكتاب ، وفيها ألوف من الرجال الذين حضروا وحيه وكتبوه ، وصحبوا رسولهم فى جميع أدواره ؟

لو كان المدسوس فيه آية من سورة طويلة ، أو كلمة تقلب المعنى وتوجهه إلى ناحية أخرى لهان الخطب على العقل ، ولكانت الشبهة تحتاج لشىء من العلاج ولكن والمدسوس ثلاث سور صغيرة فى أظهر مكان منه فأمر لا يحتمل النظر فضلا عن الدحض .

وهل يعقل أن يحدث مثل هذا الأمر فلا يثير صخباً ولا يهيج غضبا ، ولا يستدعى شغباً (١) ويمر كأنه لم يكن فى أمة دستورها هذا الكتاب وحده ، ومقيدها سوره وآياته؟

وكيف سكت عنه ابن مسعود نفسه ، فلم يسمع له فيه زئير يدوى فى العالم الاسلامى دوى الرعود القاصفة ؟ لعلك تقول خشى بأس عثمان . فقد قتل عثمان ، وابن مسعود حى يرزق (٢) فلم لم ينبه المسلمين إلى هذه الجناية ، ويلجأ إلى الخليفة ليمحوا من المصاحف هذه الزيادة التى ليست منه ؟

ما الذى حمل المسلمين ، والدين لا يزال فى نضرته ، وكتابه مرجعهم فى جميع شؤونهم ، ومقيدهم فى صلواتهم على أن يهملوا قول ابن مسعود ولا يرفعوا به رأساً ؟ ألأنهم ما كانوا يبالون بسلامة القرآن من الزيادة ، أم لأنهم كانوا يخافون بطش الذين حرقوه ، وقد دالت دولتهم ، وتلتها دولة أخرى على رأسها على بن أبى طالب أقل ما يقال فيها انها كانت خلافة أجمع المسلمون على أنها كانت راشدة ؟

وهذا الاجماع كله على عدم الاكتراث لقول ابن مسعود ، وهو ينبه إلى أمر جلل كان يكفى خيال منه أن يثير فتنة تدع الحليم حيرانا .

---

(١) فى كتب التاريخ أن من أسباب فتنة بعض الأمصار على عثمان حرق الصحف السابقة له ، وقد روينا قبل أن ابن مسعود نفسه كان يحاول تهدئة الناس فى الكوفة وكان على بن أبى طالب ينهى أن يسمى عثمان حراق المصاحف .

(٢) مات عبد الله بن مسعود عام ٣٢ هـ فى السنة التى مات فيها عبد الرحمن بن عوف والعباس عم النبى عليه السلام . وكان عثمان فى ذلك الوقت حياً ، إذ كان مقتله سنة ٣٥ هـ

■ ■ ■

ذلك هو رد من ينكر أن ابن مسعود حذف الفاتحة والمعوذتين من القرآن.

ونحسب أن ناسا إذا وقفوا على رأينا هذا فى ابن مسعود قد يستعظمونه، ويقولون إنه قول غير لائق فى حق صحابى جليل . ونحن لا ننكر أن ابن مسعود من أجل الصحابة شأنا وأعلاهم مكانا ، ولكن لم يقل أحد بعصمة عبد الله ، ولا بعصمة غيره من الصحابة .

ولقد قال غيرنا من القدماء فى بعض الصحابة ماعن لهم من رأى لا رغبة فى التجريح ، ولكن إيثارا حق فيما دلهم عليه يقينهم .

فقد أورد ابن قتيبه فى تأويل مختلف الحديث مناقشة النظام ، لحديث رواه ابن مسعود قال :

زعم ابن مسعود أن القمر انشق وأنه رآه . وهذا من الكذب الذى لا خفاء به . لأن الله تعالى لا يشق القمر له وحده ، ولا لآخر معه . وإنما يشقه ليكون آية للعالمين وحجة للمرسلين ، ومزجرة للعباد ، وبرهانا فى جميع البلاد ، فكيف لم تعرف بذلك العامة ، ولم يؤرخ الناس بذلك العام ولم يذكره شاعر ، ولم يسلم عنده كافر ، ولم يحتج به مسلم على ملحد .

ويعلق كتاب ضحى الإسلام على هذا النقد بقوله وإنما قال النظام ذلك لما روى له أن ابن مسعود قال : رأيت حراء بين فلقتى القمر . وكان النظام

يرى أن انشقاق القمر الوارد فى الآية إنما يكون يوم القيامة . فترى كيف كان النظام جريئا فى تحكيم المنطق فى رواية ابن مسعود .

وما نحن بصدده ليس رواية من هذا النوع ، ولكنه يتصل بصلب القرآن ، فأحر بنا ألا نجامل وألا نقيد بقيود لا خير منها ، ولا طائل تحتها .

■■■

هذا نوع من أنواع النقد الذى وجه إلى مصحف عثمان ، وهو ينصب على زيادات وردت فيه .

ونوع آخر يخالفه ، وهو ينصب على نقص ورد فيه .

فقد كان مصحف أبى بن كعب من المصاحف الموجودة ، وقد أورد فيه أبىّ دعاء القنوت وهو فى سورتين : اللهم إنا نستعينك ، واللهم إياك نعبد . ويقال ان عليا بن أبى طالب كان يرى أن القنوت من القرآن .

تناقش عبد الله بن زرير الغافقى الشيعى مع الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . قال الخليفة :

— لقد علمت ما حملك على حب أبى تراب الا أنك أعرابى جاف فقال عبد الله :

— والله لقد جمعت القرآن من قبل أن يجتمع أبواك ولقد علمنى منه علىّ بن أبى طالب سورتين علمهما إياه رسول الله ما علمتهما أنت ولا أبوك .

اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد و إليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك بالكفار ملحق .

وروى أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال بسم اللهِ الرحمنِ الرحيم اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك .. الخ . قال ابن جريج : حكمة البسملة انهما سورتان فى مصحف بعض الصحابة .

وروى أن أبى بن كعب كان يقنت بالسورتين وأنه كان يكتبهما فى مصحفه وتابعه عبد الله بن عباس وأبو موسى الأشعرى .

و بذا يكون مصحف أبى ١١٦ سورة . قيل والصواب ١١٥ لأنه جعل سورة الفيل وسورة الائتلاف واحدة .

وكانت سورتا القنوت تسميان سورتى الخلع والحفد .

ونكتفى فى مناقشة هذه الروايات بهذا الرد الحازم القوى الذى رد به القاضى أبو بكر الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن . قال فى الفصل الخاص عن « كلام النبى وأمور تتصل بالإعجاز » وهو رأى يؤيد ما سبق ان ذهبنا إليه فى التفريق بين أسلوب النبى وأسلوب القرآن :

إن قال قائل: إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم أفصح العرب ، وقد قال هذا فى حديث مشهود ، وهو صادق فى قوله فهلا قلتم إن القرآن من نظمه

لقدرته فى الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره . مثل قد علمنا أنه لم يتحداهم مثل قوله وفصاحته . والقدر الذى بينه و بين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشاعرين وكلام الخطيبين فى الفصاحة . وذلك مما لا يقع به الإعجاز . وقد بينا قبل هذا . انا إذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور، و بين نظم القرآن، يبين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله عز وجل وكلام الناس . ولا معنى لقول من ادعى أن كلام النبى صلى الله عليه وسلم معجز ، وإن كان دون القرآن فى الإعجاز . فإن قيل لولا أن كلامه معجز لم يشتبه على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين و بين غيرهما من القرآن . وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت فى أنه هل هو من القرآن ! ! ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره ، وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط وقد يجوز أن يكون شذ عن مصحفه لا لأنه نفاه من القرآن ، بل عول على حفظ الكل . على أن الذى يروونه خبرواحد ، لا يسكن إليه فى مثل هذا ، ولا يعمل عليه، ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه . وهذا نحو ما يذكر الجهال من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود ومصحف عثمان رحمة الله عليهما .

— ٦ —

المصحف بعد عثمان

وهذا الذى أشار إليه الباقلانى من أن مرجع الإضافات الكثيرة التى تروى فى اخبار الآحاد إلى القرآن إنما هى شروح أو مذكرات كتبها أصحاب المصاحف القديمة عليها ، فحسبها المتأخرون قرآنا وأضافوها إلى متن مصاحفهم.

وقد ألّفت كتب كثيرة تعرض هذه الأقوال ، وتفندها منها كتاب اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة عن الكسائى ، وكتاب اختلاف المصاحف لخلف ، وكتاب اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام فى المصاحف للضراء ، وكتاب اختلاف المصاحف لأبى داود السجستانى ، وكتاب اختلاف المصاحف وجميع القراءات للمدائنى ، وكتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق لابن عامر اليحصبى ، وكتاب محمد بن عبد الرحمن الأصفهانى فى اختلاف المصاحف .

ومن أشهر من روى القراءات الشاذة محمد بن أحمد بن أيوب المعروف بابن شنبوذ ، فقد أورد الكثير من الروايات التى تقحم فى الآيات كلمات بل

جملا نسبها للمتقدمين . وكان المسلمون فى عصره أوسع صدرا من أن يحكموا بتأثيمه وكفره ، وغاية ما وصفوه به أنه أحمق وقد توفى فى رواية ابن النديم سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة فى محبسه بدار السلطان ، وكان الوزير أبو على ابن مقلة ضربه أسواطا ، فدعا عليه بقطع اليد ، فاتفق أن قطعت يده ، وهذا من عجيب الاتفاق .

ومن الروايات الشاذة التى أوردها ابن شنبوذ : إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة « فامضوا » إلى ذكر الله .

ومنها : وكان (أمامهم) ملك يأخذ كل سفينة (صالحة) غصبا ..

ومنها : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف (ناهون) عن المنكر (ويستعينون الله على ما أصابهم) أولئك هم المفلحون . والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ..

يروى ابن النديم . ويقال إنه اعترف بذلك كله ثم استتيب وأخذ خطه بالتوبة فكتب يقول : قد كنت أقرأ حروفا تخالف مصحف عثمان المجمع عليه ، والذى اتفق أصحاب رسول الله على قراءته . ثم بان لى أن ذلك خطأ ، وأنا منه تائب وعنه مقلع ، وإلى الله جل اسمه منه برىء . إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذى لا يجوز خلافه ولا يقرأ غيره ..

■ ■ ■

وإذا استثنينا القراءات الشاذة ، فإن مصحف عثمان ظل هو الامام ،

ولم يعرف عن خليفة من الخلفاء جاء بعده — حتى على بن أبى طالب الذى كان فى صف المعارضة أيام حكمه ، انه بدل فى مصحف عثمان أو غيّر فيه ، بل يقول الشيعة انه هو الذى أشار على عثمان بجمع المصحف .

ففى كتاب تاريخ القرآن للعالم الشيعى الأستاذ الزنجانى :

ذكر على بن محمد الطاوس العلوى الفاطمى فى كتابه سعد السعود نقلا عن كتاب أبى جعفر محمد منصور ورواية محمد بن زيد بن مروان فى اختلاف المصاحف أن القرآن جمعه على عهد أبى بكر زيد بن ثابت . وخالفه فى ذلك (أبى) و (عبد الله بن مسعود) و (سالم) مولى حذيفة . ثم عاد فجمع المصحف برأى مولانا على بن أبى طالب عليه السلام . وأخذ عثمان مصحف أبى وعبد الله بن مسعود وسالم مولى حذيفة فغسلها . وكتب عثمان مصحفا لنفسه ، ومصحفا لأهل المدينة ، ومصحفا لأهل مكة ، ومصحفا لأهل الكوفة ، ومصحفا لأهل البصرة ، ومصحفا لأهل الشام .

ويروى أن عليا بن أبى طالب كان يدافع عن عثمان ضد أعدائه ويقول « إياكم والغلو فى أمر عثمان ، وقولكم حراق المصاحف » .

■■■

وقد جد المسلمون بعد مضى ثلث قرن على الهجرة فى حفظ القرآن وتجويده وانتساخ مصاحفه حتى إنا نرى المصاحف ترفع فى الحرب بين على ومعاوية حقنا للدماء وطلبا للهدنة .

ولا نكاد نعرف على وجه دقيق عدد المصاحف التى كانت موجودة فى هـذه الحادثة ، والتى قيل انها ثلاث مئة ، وقيل أقل . ولـكن من المرجح أنها كانت أقل حتى ان دائرة المعارف ترجح أنهـا كانت مصحفا واحدا . وربما كان هذا صحيحا إذا راعينا جواز كتابة المصحف فى عدة أجزاء . وذلك لعدم احكام الـكتابة وكبر الحروف الهجائية فى ذلك الوقت .

ومضىّ الزمن كان يجمع المسلمين أكثر وأكثر حول المصحف الامام حتى نسيت المصاحف الأخرى التى كانت موجودة ، والتى يقـال ان بعضها موجود حتى الآن . فقد ذكر الشيخ الزنجانى أنه رأى فى سـنة ١٣٥٣ فى دار الـكتب العـلوية فى النجف مصحفا بالخط الـكوفى كتب على آخره . كتبه على بن أبى طالب فى سنة أربعين من الهجرة .

— ٧ —

ترتيب المصحف

البحث فى ترتيب المصحف على قسمين :

أولا — قسم يتناول ترتيب الآيات .

ثانيا — قسم يتناول ترتيب السور .

يقول السيوطى : الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفى لا شبهة فى ذلك ..

وذلك أن رسول الله كان يدل على مكان كل آية فى سورتها .

ويؤيد هذا الرأى قول عثمان بن أبى العاص :

كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ شخص ببصره ثم صوبه ، ثم قال : أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ..» إلى آخرها

وقد التزم عثمان فى تدوين المصحف ما علم أنه رأى رسول الله فى ترتيب الآيات. فقد روى البخارى عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان : والذين يتوفون

منكم ويذرون أزواجا قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها . قال عثمان: يا ابن أخى لا أغير شيئا منه من مكانه .

والمفهوم بداهة أن رسول الله كان يقرأ فى صلاة الجماعة وغيرها الكثير من سور القرآن وكان يقرؤها مرتبة الآيات .

ولكن السجستانى فى كتاب المصاحف يروى عن الزبير بن العوام قال : أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال أشهد أنى سمعتهما من رسول الله ووعيتهما . فقال عمر وأنا أشهد لقد سمعتهما . ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا آخر سورة من القرآن فالحقوها فى آخرها .

والمفهوم من هذه الرواية أن الصحابة بعد رسول الله كانوا يجتهدون فى ترتيب الآيات ويعملون برأيهم لا بتوقيف من رسول الله حسب الروايات السابقة. إلا أن من العسير أن نسمح لهذه الرواية بأن تقتحم إجماع المسلمين على أن ترتيب الآيات كان بأمر من النبى .

ومع تسليمنا بأن هذه الآيات رتبت فى سورها حسب أمر رسول الله إلا أنى لم أقف بعد على رأى القدماء فى القواعد التى كان النبى يتبعها فى ترتيب السور .

فالثابت أن حكما من الأحكام كان ينزل مجزءاً وكان ينزل بين أجزاء هذا الحكم أو السورة آيات أخرى فى موضوع آخر . ومعنى هذا أنه لم تكن

تنزل آيات موضوع واحد فى وقت واحد فكان على رسول الله أن يدل على مكان هذه الآية من سورتها .

ولا يمكن الاهتداء حتى الآن — على سبيل الجزم واليقين — إلى خطة معينة نقول ان رسول الله سار عليها فى الترتيب أو أن الوحى التزمها فى إرشاده إلى هذا الترتيب . إذ الثابت من الروايات السابقة وغيرها أن الوحى كان يدل النبى على مكان الآيات من السور .

ولنضرب مثلا لما نقول بسورة المزمل :

فهذه السورة مكية إلا الآيات ١٠، ١١ ، ٢٠ فمدنية. تبدأ بقوله تعالى :

« يَـٰأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ . قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ، نِّصْفَهُ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً » .

وهى تسع عشرة آية من السورة نراها تلتزم فواصل واحدة تقريباً . ونغماً متصلا ، وموضوعاً متسلسلاً . . . ولكنا نرى فى الآية الأخيرة من السورة ، الفاصلة التى تكررت فى ـ قليلا ، وترتيلا ، وثقيلا ، وقيلا ، وطويلا .. الخ تتغير . والنغم الذى يتمشى فى الآيات يتغير ، كما يتغير نفس الموضوع الذى تناولته وهذه هى الآية الأخيرة رقم ٢٠ وهى مدنية كما قلنا :

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ، وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ، عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ، عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم

مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

فهذه الآية الطويلة التى تعد من أطول آيات القرآن ألحقت بسورة آياتها قصيرة ونغماتها وفواصلها متصلة .. فما هو وجه إضافة هذه الآية الى هذه السورة؟

لا سبيل إلى الرد على هـذا السؤال . وغاية ما نقول انها إرادة إلهية اقتضت هذا الوضع لهذه الآية ولغيرها من الآيات التى يمكن أن يقف القارئ عندها كما وقفنا نحن هنا. ولم يرد عن رسول الله ولا عن صحـابته قول يفسر حكمة الترتيب كما أن العلماء بعد أن تحاشوا البحث فى هذه النقطة اكتفاء بما تقرر وثبت من أن جبريل كان يرشد النبى عليه السلام الى الترتيب فـكان النبى يأمر الـكتاب والمسلمين بأن تكون الآية فى الموضع الذى قرره لها[1] ..

---

(١) فى غير هذا الباب ، وهو موضوع ترتيب الآيات ، بذلت محاولات كثيرة طوال ثلاثة عشر قرنا لمحاولة وضع ضوابط للقرآن ولـكن كل القواعد التى وضعت حتى الآن لم تطرد اضطرادا حتى قواعد النحو والبلاغة التى أخذت مباشرة من القرآن لا يمكن تطبيقها فى جميع الحالات ومن أطرف ما يروى فى هذا الباب ماحدث فى محاورات الرافعى والعقاد فقد حاول أن يستنبط أولهما قاعدة وهى أن تتابع الحروف المتشابهة فى القرآن تحدث نغما معينا وضرب بهذا مثلا الآية . « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » وأطنب فى وصفه — وهى محاولة سبق إليها الرافعى . وقد رد عليها العقاد يسأله رأيه فى تكرار الميم فى الآية : « قل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم »

قال البغوى فى شرح السنة : الصحابة رضى الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذى أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئاً خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته فكتبوه كما سمعوا من رسول الله من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رسول الله يلقن أصحابه و يعلمهم فأنزل عليه من القرآن على الترتيب الذى هو الآن فى مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك واعلامه عند نزول كل آية ان هذه الآية تكتب عقب آية كذا فى سورة كذا فثبت أن سعى الصحابة كان فى جمعه فى موضع واحد لا فى ترتيبه فإن القرآن مكتوب فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا ثم كان ينزله مفرقا عند الحاجة وتوتيب النزول غير ترتيب التلاوة .

هذه هى عقيدة علماء المسلمين فى ترتيب آيات القرآن وأما المستشرقون فلهم مذهب آخر . فهم كما ذكرنا قبل لا يسلمون ابتداء بأن القرآن من عند الله وتمشيا مع هذا الحكم يشكون شكا قويا فى أن النبى هو الذى أملى ترتيب آيات المصحف وأن لجنة عثمان هى التى قامت بهذا العمل و يقولون إن أكثر من يد وأكثر من رأى عمل فيه .

وأما ترتيب السور فهو باجتهاد اللجنة العثمانية ، ولا سبيل إلى الأخذ بالأقوال التى تحاول أن تسند هذا الترتيب إلى أمر رسول الله . وكل ما يمكن

أن يؤخذ به هو أنه قد يكون عرف عن النبى أنه قال: ان هذه السورة قبل تلك وعين سورا معينة . أما ترتيب القرآن كله فقد تركه لاجتهاد أمة المسلمين من بعده . ولاداعى لنقل الأقوال التى تؤيد هذا الرأى ، إذ أن الخلاف عليه قليل . ولكننا نثبت هنا رواية عن ابن عباس توضح هذا المعنى كما تزيد الطريقة التى كان يتبعها عثمان بن عفان ولجنته فى عملهم بيانا .

روى ابن عباس : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال فقال عثمان : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد . فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة . وكانت براءة من آخر القرآن نزولا . وكانت قصتها شبيهة بقصتها . فظننت أنها منها . فقبض رسول الله ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال » .

والظاهر من مراجعة مصحف عثمان أنه وأعوانه اختاروا ترتيب المصحف حسب طول السور وقصرها فى أغلب الأحيان لأن هذه القاعدة لا تطرد

اطرادا منتظما . وإلا لكانت سورة العصر مع سورة الكوثر وسورة الإخلاص فى آخر المصحف ولما تأخرت عن العصر سورة الماعون مثلا .

وكم كان يكون نافعا ومفيدا لو أن عثمان أشار بترتيب المصحف حسب تاريخ نزول السور . ولكن يظهر أنه اعترض هذا العمل صعوبات أهمها أن السور لم تنزل دفعة واحدة وإنما كانت بعض آيات من سورة تنزل قبل البعض الآخر بمدة طويلة . بل ان سورا كثيرة نزلت فى مكة وأكملت فى المدينة . كما أن الترتيب التاريخى على فرض عدم وجود هذه الصعوبة يقتضى جهدا أكبر من الترتيب الحاضر الذى روعى فيه — على الأغلب الطول والقصر — ولكن من المؤكد أن المسلمين فى ذلك العهد كانوا أقدر من غيرهم على القيام بهذا العمل . وهو ترتيب المصحف ترتيبا تاريخيا لأنهم كانوا صحابة رسول الله. وقد نزل القرآن عليه وهو بينهم . فعرفوا مناسبة كل سورة وكل آية . وظلت فى ذاكرتهم . وقد علموها لتابعيهم من بعدهم . ووصلت إلينا معلوماتهم فى عصر التدوين أى بعد قرن ونصف على الأقل . وهى مدة غير قصيرة سمحت لكثير من التحريف والتحوير أن يشوب هذه الروايات .

ولم يكن ترتيب مصحف عثمان متفقا مع ترتيب أشهر المصاحف التى كانت موجودة فى عهده : وأهمها مصحف على بن أبى طالب ومصحف أبى ابن كعب ومصحف عبد الله بن مسعود ومصحف عبد الله بن عباس .

وفى كتاب الإتقان طائفة هامة جدا من الترتيبات حسب أسباب النزول ، وقد أورد كتاب تاريخ القرآن ترتيب المصاحف السابقة مع ترتيب مصحف جعفر الصادق .

وقد وصف تاريخ القرآن مصحف الإمام على بأنه كان فى سبعة أجزاء، وقد أتى به يحمله على جمل وهو يقول : هذا القرآن جمعته ! !

ولم يلتزم الترتيب التاريخى فى مصحفه ، ولا ندرى حكمة انصراف هؤلاء الصحابة عن اختيار هذه الطريقة فى ترتيب مصاحفهم، مع أنا نرى مثلا ابن سعد ينقل عن عبد الله بن عباس أنه سأل أبى كعب عما نزل من القرآن بالمدينة فيخبره بأنها ٢٧ سورة ويذكرها له . فلم يكن إذن الصحابة غافلين عن هذه المسألة . ومع هذا نراهم أهملوها فى مصاحفهم ، كما أهملها عثمان فى المصحف « الامام » .

وفيما يلى الترتيب التاريخى كما رواه ابن عباس :

السور المكية

١ ـ اقرأ	٥ ـ تبت	٩ ـ الفجر
٢ ـ ن	٦ ـ الشمس	١٠ ـ الضحى
٣ ـ المزمل	٧ ـ الأعلى	١١ ـ ألم نشرح
٤ ـ المدثر	٨ ـ الليل	١٢ ـ العصر

١٣ ـ العاديات
١٤ ـ الكوثر
١٥ ـ التكاثر
١٦ ـ الماعون
١٧ ـ الكافرون
١٨ ـ الفيل
١٩ ـ الفلق
٢٠ ـ الناس
٢١ ـ الإخلاص
٢٢ ـ النجم
٢٣ ـ عبس
٢٤ ـ القدر
٢٥ ـ الضحى
٢٦ ـ البروج
٢٧ ـ التين
٢٨ ـ قريش
٢٩ ـ القارعة
٣٠ ـ القيامة
٣١ ـ الهمزة
٣٢ ـ المرسلات
٣٣ ـ ق
٣٤ ـ البلد
٣٥ ـ الطارق
٣٦ ـ الساعة
٣٧ ـ ص
٣٨ ـ الأعراف
٣٩ ـ الجن
٤٠ ـ يس
٤١ ـ الفرقان
٤٢ ـ الملائكة
٤٣ ـ مريم
٤٤ ـ طه
٤٥ ـ الواقعة
٤٦ ـ الشعراء
٤٧ ـ النمل
٤٨ ـ القصص
٤٩ ـ بنى اسرائيل
٥٠ ـ يونس
٥١ ـ هود
٥٢ ـ يوسف
٥٣ ـ الحجر
٥٤ ـ الأنعام
٥٥ ـ الصافات
٥٦ ـ لقمان
٥٧ ـ سبأ
٥٨ ـ الزمر
٥٩ ـ المؤمنون
٦٠ ـ السجدة
٦١ ـ الشورى
٦٢ ـ الزخرف
٦٣ ـ الدخان
٦٤ ـ الجاثية
٦٥ ـ الأحقاف
٦٦ ـ الذاريات

٦٧ ـ الغاشية
٦٨ ـ الكهف
٦٩ ـ النحل
٧٠ ـ نوح
٧١ ـ ابراهيم
٧٢ ـ الأنبياء
٧٣ ـ المؤمنون
٧٤ ـ السجدة
٧٥ ـ الطور
٧٦ ـ تبارك
٧٧ ـ الحاقة
٧٨ ـ المعارج
٧٩ ـ النبأ
٨٠ ـ النازعات
٨١ ـ الانفطار
٨٢ ـ الانشقاق
٨٣ ـ الروم
٨٤ ـ العنكبوت
٨٥ ـ المطففين

السور المدنية

٨٦ ـ البقرة
٨٧ ـ الأنفال
٨٨ ـ آل عمران
٨٩ ـ الأحزاب
٩٠ ـ الممتحنة
٩١ ـ النساء
٩٢ ـ الزلزلة
٩٣ ـ الحديد
٩٤ ـ القتال
٩٥ ـ الرعد
٩٦ ـ الرحمن
٩٧ ـ الإنسان
٩٨ ـ الطلاق
٩٩ ـ البيّنة
١٠٠ ـ الحشر
١٠١ ـ النصر
١٠٢ ـ النور
١٠٣ ـ الحج
١٠٤ ـ المنافقون
١٠٥ ـ المجادلة
١٠٦ ـ الحجرات
١٠٧ ـ التحريم
١٠٨ ـ الجمعة
١٠٩ ـ التغابن
١١٠ ـ الصف
١١١ ـ الفتح
١١٢ ـ المائدة
١١٣ ـ براءة

وقد رتب المستشرق المعروف نولدكه (صاحب أكبر كتاب أوربى ألف عن القرآن) المصحف ترتيباً تاريخياً وصفه تاريخ القرآن بقوله : سلك فى كشف تاريخ السور مسلكاً قويماً يهدى إلى الحق أحياناً . فإنه جعل بدر والخندق وصلح الحديبية وأشباهها من المدارك لفهم تاريخ ما نزل من القرآن فيها . وجعل أيضاً اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابى دليلا آخر لتاريخ آياته .

فيقول ان الغالب فى الخطابات الواردة فى الآيات بلفظ (يأيها الناس) والشدة فى الانذار نزلت فى أول النبوة وقلة عدد المسلمين . والخطابات بلفظ (يأيها الذين آمنوا) وآيات الرحمة نزلت بعد ازدياد عدد المسلمين والمؤمنين وهو يرتاب فى بحثه التحليلى فى الروايات والأحاديث وأقوال المفسرين فى تاريخ القرآن .

وفى عين الحال يأخذ من مجموعها ما يضىء فكره ويرشده إلى كشف تاريخ السور والآيات ونظمها أحيانا .

أخذ ترتيب السور عن كتاب (أبى القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافى) من رجال القرن الخامس الذى ذكرنا ترتيبه وكلامه . ولكنه قسمه إلى قسمين : القسم المكى والقسم المدنى . وهو يضع سورة العلق مثلا وهى أول ما نزل على ما رواه المحدثون فى أول القرآن وسورة القلم وهى التى تليها فى النزول بعدها وهكذا .

ترتيب القسم المكى على رأى نولدكه

٩٦ر٦٨ر٧٣ر٧٤ر١١١ر٨١ر٨٧ر٩٢ر٨٩ر٩٣ر٩٤ر١٠٣ر١٠٠ر١٠٨
١٠٢ ر١٠٧ ر١٠٩ ر١٠٥ر١١٣ر١١٤ر١١٢ر٥٣ ر٨٠ر٩٧ر٩١ر٨٥ر٩٥ ر
١٠٦ر١٠١ر٧٥ر١٠٤ر٧٧ر٥٠ر٩٠ر٨٦ر٥٤ر٣٨ر٧ر٧٢ر٣٦ر٢٥ر٣٥ر١٩
٢٠ر٥٦ر٢٦ر٢٧ر٢٨ر١٧ر١٠ر١١ر١٢ر١٥ر٦ر٣٧ر٣١ر٣٤ر٣٩ر٤٠ر٤١
٤٢ر٤٣ر٤٤ر٤٥ر٤٦ر٥١ر٨٨ر١٨ر١٦ر٧١ر١٤ر٢١ ر٢٣ر٣٢ر٥٢ر٦٧ ر
٦٩ر٧٠ر٧٨ر٧٩ر٨٢ر٨٤ر٣٠ر٢٩ر٨٣

ترتيب القسم المدنى على رأى نولدكه

٢ر٨ر٣ر٣٣ر٦٠ر٤ر٩٩ ر٥٧ر٤٧ر١٣ر٥٥ر٧٦ر٦٥ر٩٨ر٥٩ر١١٠ ر
٢٤ر٢٢ر٦٣ر٥٨ر٤٩ر٦٦ر٦٢ر٦٤ر٦١ر٤٨ر٥ر٩[1] .

(١) ص ٥٨ ج ١ تاريخ القرآن لنولدكه Noldeke

فهرس

صحيفة		صحيفة	
٥	مقدمة المؤلف	١٦٩	لفظ ومعنى
١٩	صوت من السماء	١٦٩	موضوع القرآن
٣٥	الوحى	١٧٧	حوار وفروض
٤٤	فى ثلاث سنين	١٨٥	مصحف عثمان
٤٩	القرآن وقريش	١٩٢	الناسخ والمنسوخ
٦٣	بين مكة والمدينة	٢٠٦	القرآن فى عهد أبى بكر وعمر
٧٩	النبى والقرآن	٢١٩	فى عهد عثمان
٩٢	لغة القرآن	٢٢٥	الصحابة ومصحف عثمان
١٣٠	فواتح السور	٢٣٤	المصحف بعد عثمان
١٣٥	القلوب وأقفالها	٢٣٨	ترتيب السور
١٣٦	قرآن مكة وقرآن المدينة	٢٤٥	السور المكية
١٤٢	أسلوب القرآن	٢٤٧	السور المدنية
١٥١	تحدى القرآن	٢٤٩	ترتيب القسم المكى
١٥٧	محاولات التقليد	٢٤٩	« القسم المدنى

اللهُ نُورُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ
كَمِشْكٰوةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي
زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ
يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ
وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

893.7K84 DS94

JAN 9 1948

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58923608
893.7K84 DS94
Quran.